

حياة يسوع

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عام ١٧٩٠ و ١٨٠٠ . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لتفحص الوعي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين .

في « حياة يسوع » يسعى هيجل إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد للسيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

المكتبة
الهيجلية

هيجل

حياة يسوع

ترجمة
جرجي يعقوب



المسجد

تاريخية القلعة

التي هي

مدخل

١ - « دفاتر الشباب » لهيجل .

- أ -

في كانون الثاني من العام ١٧٩٥ كتب هيجل الشاب ، أبان تعليمه إحدى العائلات في مدينة برن ، إلى شيلينج ، صديقه المفضل آنذاك : « إن ابتعادي عن كثير من الكتب والوقت الضيق المتاح لي ، لا يسمحان بانتهاء الأفكار العديدة التي أحملها في ذاتي . . . » ويرسل له شيلينج ، ذو العبقرية المبكرة ، بعد بضعة أشهر الكتاب الذي كان منصرفاً إلى تأليفه : « في الأنا كمبدأ للفلسفة » . فيشكره هيجل على كتابه ويخاطبه بحماسة قائلاً له فيما قال : « لقد أرسلت كلمتك في الزمن اللامتناهي ، بصمت . . . » .

وفي الرسالة نفسها المؤرخة في ٣٠ آب من العام ١٧٩٥ نسمعه يشكو مجدداً من كتاباته التي يبدو أنها لا تتقدم مطلقاً : « أما كتاباتي فإنها لا تساوي تعب الحديث عنها . . . »^(١) . ولكنه لا يصرف النظر عن فكرة إنجازها ، ويأمل أن يستطيع يوماً إخضاعها لنقد شيلينج « السمع » . فقد لعب شيلينج ، وهو أصغر من هيجل ببضع سنوات ، دور الأخ الأكبر ، أو قل دور المعلم ، بالنسبة إلى هيجل ذي العبقرية المتأخرة . ولكن وعده يبقى وعداً ، فلا يخضع أعماله لنقد صديقه ، رغم متابعتها لها بسعي حثيث .

(١) هيجل ، الأعمال . . . HEGEL, Werke, Berlin, 1832 - 1887, T.XIX, V.I,

وذلك لسبب بسيط ، فإن تلك الأعمال لم تنجز على الإطلاق .

ومثلها كان مصير الملاحظات التي سجلها هيجل على الورق أبان ممارسته التعليم في فرانكفورت على نهر الماين .

ولم يفكر هيجل الفيلسوف بعد ذلك في انجاز أعمال هيجل اللاهوتي ، حتى في شكلها الأولي ، ذلك أننا في صدد مؤلفات تستحق عموماً أن تُسمى لاهوتية . أما أفكار اللاهوتي - الفيلسوف الشاب التي كان « يحملها » في ذاته ، فقد مرت فيما بعد في مذهب المثالية المطلقة ، ولكن بعد اخفاء أصلها الديني ، إذا جاز التعبير . إن بعض هذه الأفكار قد رأى النور بالشكل الأصلي في المقتطفات التي نشرها ك . روزنكرانتس ور . هايم (٢) ، ولكن تلك المقتطفات لا تمثل سوى جزء زهيد من المخطوطات المحفوظة في مكتبة برلين (٣) .

ثمّة استمرارية حقيقية بين الأفكار التي عاجلها هيجل في أعماله اللاهوتية وبين أفكاره اللاحقة ، وهو ما أظهره هايم بوضوح في دراسته عن هيجل . ولكن ، رغم دراسة هايم ، فإن الإهمال الذي لحق بالميتافيزيقا الهيجلية ، في أواسط القرن الماضي ، أدى إلى عدم الاهتمام بكتابات الفيلسوف في شبابه ، رغم الأهمية الكبيرة التي قدمتها تلك الكتابات في مجال الإحاطة بالمذهب الهيجلي .

ولهذا السبب فإن كتابات هيجل بين العامين ١٧٩٠ و ١٨٠٠ لم تجد مَنْ ينشرها قبل مطلع القرن الحالي ، باستثناء المقتطفات اللاهوتية والسياسية التي نشرها روزنكرانتس وهايم ، وقسم من الكتابات السياسية نشره موللا .

(٢) روزنكرانتس ، حياة هيجل . K. ROZENKRANZ , G. W. Fr. Hegels Leben, Berlin, 1844.

هايم ، هيجل وزمانه . R. HAYM, Hegel und seine zeit, Berlin, 1857.

(٣) المعروفة سابقاً باسم « مكتبة بروسيا الملكية » .

ويعود الفضل إلى ديلتاي ، مؤرخ المثالية الألمانية الكبير ، الذي لفت انتباه العالم الفلسفي مجدداً إلى الكتابات اللاهوتية لهيجل الشاب (٤) ، بدراسته العميقة لشباب هيجل ، تلك الدراسة التي لم تنجز للأسف . كما أن السيد بول روك ، كان أول من نشر جزءاً من هذه الأعمال في العام ١٩٠٦ تحت عنوان « حياة يسوع » . أما طبعة السيد هرمان نول ، تلميذ ديلتاي ، فظهرت بعد ذلك ببضعة أسابيع ، وكانت شبه كاملة ، وحملت العنوان الأصح : « كتابات لاهوتية لهيجل الشاب » . فإذا استثنينا بعض العظات التي القاها هيجل في مدينة توبنجن ، وأربع بطاقات ، فإن طبعة السيد نول حوت كل الأعمال اللاهوتية لهيجل : « الديانة الشعبية والمسيحية » (شذرات) ؛ « حياة يسوع » ؛ « نقد المسيحية الوضعية » ؛ « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وعدة « مخططات » لأعمال وشذرات (٥) .

(٤) نشرت دراسة ديلتاي أولاً في « حوليات أكاديمية برلين » (W. DILTHEY, Die Jugendgeschichte, Hegels, Abhandlungen der preussischen Akademie der Wissenschaften, 1905, Berlin.) ثم نشر السيد هرمان نول عمل معلمه في كتاب مستقل سنة ١٩٢١ ، وأضاف إليه الجزء الذي لم ينجزه ديلتاي .

(٥) تحتوي طبعة روك : « حياة يسوع » ؛ الفقرات التي تحمل في طبعة نول عنوان « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وجزءاً مما طبعته منشورات نول في ملحق بعنوان « مشاريع » . فعندما كان السيد بول روك ينسخ المخطوطات اللاهوتية لهيجل ، كانت مجموعة في ثلاثة مجلدات تحمل الأرقام : ٧ ، ٨ و ١١ . وقد نشرت دار روك المجلد رقم ٧ (« حياة يسوع ») ؛ وفقرات المجلد رقم ١١ التي ترتبط « من دون شك » بـ « حياة يسوع » ، كما ذكر السيد روك نفسه .

وقد نشرت هذه الفقرات حسب الترتيب الموضوع لها في المجلد رقم ١١ . ولذا فإن طبعة روك لا تحتوي على الفقرات الموجودة في المجلد رقم ٨ والتي « ترتبط » بكتاب « حياة يسوع » .

ميزة طبعة نول أنها كاملة ، وأنها تتبع تصميماً مختلفاً . فهي لم تنشر المخطوطات كما تم جمعها بمحض الصدفة في مكتبة برلين . لأن نول تابع عن كذب دراسة ديلتاي ، فاضطر إلى نشر المخطوطات بحسب ترتيبها الزمني ، فأصبح بالإمكان تتبع النمو الروحي لهيجل الشاب .

وهكذا فإن « روح المسيحية ومصيرها » الذي نشرته دار روك على أنه « شذرات » =

كان تأثير تلك المنشورات كبيراً ، من وجهة نظر هيغل - الانسان ،
ووجهة نظر هيغل - الفيلسوف .

فقد كان الميل كبيراً قبل ذلك إلى أن يرى في هيغل - الانسان تجسماً
متكلفاً لمذهب برلين ، أو نسيان هيغل - الانسان تماماً . وكان يُظن أن

مرتبطة « بحياة يسوع » ، جاء بعد « نقد المسيحية الوضعية » في طبعة نول . وهذا
الأخير يرتبط بدقة « بحياة يسوع » ، وقد كتب بعده مباشرة (قبل ٢ تشرين الثاني
١٧٩٥ ، انظر نول صفحة ١٣٩) ، وفيه استعمل هيغل بعض الفقرات التي سبق
ذكرها في « حياة يسوع » . أما « روح المسيحية ومصيرها » فقد كتب في خريف أو
شتاء ١٧٩٨ (انظر نول ص ٤٠٥) أي في الفترة التي غير فيها هيغل وجهة نظره .
ولهذا السبب فإن عنوان « حياة يسوع » الذي جمعت فيه طبعة روك « حياة يسوع »
الصحيح ، المخطوط في العام ١٧٩٥ ، إلى جانب « روح المسيحية ومصيرها » ، يبدو
لي غير مبرر .

ومن جهة أخرى فإن طبعة نول نجحت في إعادة بناء عمل هام لهيغل ، وربما أكثر
كتابات الشباب أهمية . وهو بالتحديد « روح المسيحية ومصيرها » (هنا تبلغ إحدى
مراحل نمو فكر هيغل أوجها) . وعلى هذا النحو ، فإن المادة التي قدمتها طبعة روك
بشكل فقرات ، تحمل كلها سمة روح واحدة وتعالج المشكلة نفسها ، إلا أنها غير
متماثلة فيما بينها . أما في طبعة نول فإن تلك المادة تأخذ الشكل الموحد لعمل
منظم . وحتى تصل دار نول إلى تلك النتيجة ، فصلت بعض الأجزاء ونشرتها في
ملحق على أنها « مشاريع » ؛ (الصفحات العشر الأولى من « فقرات » طبعة روك ،
والصفحات ١٠١ - ١٠٦ ، ١٦٤ - ١٦٩ ، ١٧٧ - ٢٠١) . أما باقي النص فقد تم
توزيعه بشكل مختلف عن طبعة روك .

وبناء على طلب السيد نول ، أعادت مكتبة برلين جمع المخطوطات اللاهوتية لهيغل
بحسب الترتيب المتبع في طبعة نول (ملاحظة دونا السيد نول نفسه في الصفحة
٥٧٦ من كتاب ديلتاي Die Jugendgeschichte Hegels - شباب هيغل - المطبوع
سنة ١٩٢١) .

يضاف إلى كل ذلك أن طبعة نول احتوت أيضاً على الأعمال السياسية التي كتبها
هيغل بين سنتي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ ، والتي لم تكن قد نشرت قبلاً .

بالامكان فهم أفكار هيغل - الفيلسوف دون أخذ الحياة الروحية الحميمة
لهيغل - الانسان بعين الاعتبار .

والحال ، أن كتابات الشباب هذه تبرز هيغلاً تزخر فيه حياة داخلية
غاية في الغنى . ويتملكه شعور قوي بتماثل كلي جذري لسائر أشكال
الوجود ، وشعور بوحدة الحياة ، الحياة الكلية في الكون ، ويقض مضجعه
قلق ديني ازاء سائر التناقضات التي خلقتها الحياة والعقل في مجرى الكائن
الواحد الحي ، وتغلب نفسه رغبة حارة في مصالحة سائر التناقضات ، ويلزمه
الحنين الصوفي إلى الوحدة الكاملة مع الكل .

ومعلوم أن العنصر العقلي ، القوي ، قد جاء وكأنه طعم للعنصر
الانفعالي الصوفي . ويمكن القول إن مذهب هيغل اللاحق ليس سوى التعبير
العقلاني ، وبشكل ما اللاشخصي ، عن الحياة الصوفية التي عاشها هيغل
الشاب ، تلك الحياة الشخصية إلى أبعد الحدود . وسنلاحظ فيما بعد أن
المذهب المبني بواسطة المنهج الجدلي هو الراسب العقلي للتجربة الدينية التي
عاشها هيغل بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ .

كانت الرغبة في الاتحاد الكامل بالكل من الحرارة بحيث أن هيغل
كاد ، لفترة ما ، في إحدى منعطقات مسيرته ، يلتزم نهائياً الطريق التي
رسمها له المعلم ايكارت ويعقوب بوهمه . وعلى هذا النحو فإنه كان سيمسي
تلميذاً عبقرياً لكبار الصوفيين الالمان ومنتماً لهم . ولكن عقلانيته وولعه
بالتاريخ واهتمامه الحاد بتفاصيل الأشياء قاومت ، فسار فكره في طريق
أخرى .

يرى السيد اميل براهيه أن « قلق » النفس التي تحس أنها غريبة بازاء
الموضوعات الخارجية ، ذلك « القلق » الذي تحدث عنه هيغل في كتابه
فينومينولوجيا الروح ، هو « الحافز الخفي » لفكر هيغل^(٦) . ولا بد أن يشعر

(٦) تاريخ الفلسفة الالمانية (أ . برهيه) ، باريس ١٩٢١ ، ص ١٢٠ .

كل مَنْ يقرأ مؤلفات هيجل بأن هذا التوتر الروحي أكبر وأشد حساسية في كتاباته اللاهوتية .

وهكذا فإن نشر تلك الكتابات الحميمة ، الأمر الذي يرجح أن هيجل كان يعتبره عملاً رجساً ، يكشف لنا هيجلاً غاية في الانسانية ، فيبدو اقرب إلى القلب من الأستاذ البرليني ، الذي سيكونه فيما بعد .

ولكن رغم ذلك ، فإذا كان بالامكان اعتبار نشر تلك الأعمال تفريطاً بالأمانة نحو هيجل - الانسان ، فإنها ليست كذلك نحو هيجل - الفيلسوف . لأن كتابات الشباب هذه توصلنا إلى فهم أفضل للفلسفة الهيجلية . فإننا نلتقط منها في الواقع ولادة عدد من الأفكار التي ستمر بعد ذلك في مذهب هيجل . ويمكن القول هنا ، مع السيد براهيه ، أن هيجل لم يفعل شيئاً آخر سوى اعطاء تلك الأفكار شكلاً أكثر عقلانية^(٧) .

ولكن يمكن القول في الوقت نفسه ، أنه بفضل اكتشاف هذا الهيجل ، الأكثر انسانية والأقل تجريداً ، تتلون المعاني الهيجلية ، المنفرة للوهلة الأولى والقاسية ظاهرياً ، ببعض الانفعالية وتمتلىء بالعاطفة . وإذا كانت معانيها العقلانية لا تتغير أبداً ، فإنها تأخذ إلى حد ما بعض الصلابة . وهذا الأمر هام جداً من أجل فهم فلسفة تحمّلت تفسيرات متنوعة جداً ومختلفة جداً ، وحتى متناقضة .

- ج -

ربما كان مفيداً أن نتذكر هنا أن هيجل أراد أن يكون قساً ، تابعاً بذلك نذر أهله ومدفوعاً ، على الأرجح ، بميله إلى النشاط العملي . وقد انتهت دراساته اللاهوتية في جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ ، ولكن اهتمامه بقي محصوراً بالمسائل اللاهوتية حتى سنة ١٨٠٠ ، بسبب « الميل إليها » على حد

(٧) نفسه ص ١١٩ .

(٨) اطلق عليها هـ . تين اسم « تجريدات مرعبة » (Philosophie Classique p. 143, 12^e édition)

تعبيره ، وبسبب علاقتها الحميمة « بالأدب الكلاسيكي والفلسفة »^(٩) . والأعمال التي نشرها السيدان روك ونول هي خلاصة هذه الاهتمامات .

إلا أنه من غير الممكن وصف تلك الأعمال باللاهوتية إلا بالمعنى الواسع جداً لهذه الكلمة ، لأنه حتى هنا ، أي حيث يحتك هيجل بمشاكل اللاهوت ، فإنه لا ينظر إليها بصفته لاهوتياً . وإذا كان موضوع البحث لاهوتياً تماماً في بعض الأحيان ، فإن الفكر المركز عليه ليس فكراً لاهوتياً . وبشكل عام ، فإن ما يستولي على فكر هيجل الشاب ليس المشكلات اللاهوتية بحد ذاتها ، ولا مسائل العقيدة - المسيحية أو غير المسيحية - بل إن الفيلسوف والمؤرخ هو الذي يخوض في مسائل الفلسفة العملية وعلم الاجتماع والتاريخ والسياسة ، بوجهة نظره الخاصة ومع حرية فكرية منفلة من أي قيد عقائدي . وبهذا التحديد فإن هيجل يجب ألا يُعدّ لاهوتياً أكثر من نيتشه مثلاً .

كان هدفه ذا طبيعة عملية تماماً . فهيجل الشاب ، كما هيجل في كل مراحل ، يريد أن يكون مصلحاً . ويفكر في تأسيس ديانة شعبية تقوم مقام المسيحية الوضعية التي يعتقد أنها دين سلطة وعقيدة ، وأنها يجب أن تعود إلى مبدأها الأصلي ، أي المبدأ الخلقى . كان يحلم بدين يرضي متطلبات العقل والعاطفة في آن معاً ، دين خالق الحضارة أكثر تناغماً وأكثر غنى .

ولكن حتى يكون البناء ممكناً يجب تمهيد الأرض أولاً . لذلك كان على هيجل أن يشرع بالضرورة في تفحص المسيحية ونقدها . ولكن هذا الأسلوب جعل المشكلة التي كانت عملية تماماً في البداية تتغير شيئاً فشيئاً ، ثم تتسع ، حتى صارت مسألة تاريخية . إنها فرادة فكر هيجل الشاب في نقل المشاكل الميتافيزيقية بالنسبة إلى كانط وشيلينج ، إلى أرض تاريخية تماماً . ولكن المسألة التاريخية تحولت بدورها إلى مسألة في الفلسفة الخالصة ،

(٩) من « مراحل السيرة » (Curriculum vitae) التي كتبها هيجل نفسه في أيلول ١٨٠٤ ، ونشرها نول (op. cit., pp. 8 - 9) .

وبالتحديد إلى مسألة في الفلسفة الصوفية وفي الحلولية . وهذه ستكون نهاية الطريق الطويل الذي اجتازه فكر هيجل بعد اجتهاد كبير .

والتعمق في هذا الطريق أوصل هيجل إلى أكبر اكتشافاته الفلسفية ، تلك الاكتشافات التي ستتألف منها فيما بعد أحجار الزاوية لمذهبه .

ولكن انتقال المشكلة وتوسيعها أدّى إلى تغيير المثل الأعلى أيضاً . فالمثل الأعلى العملي الكامن في تأسيس « ديانة شعبية » ، وهو ما تابعه هيجل في البداية ، يتراجع إلى الموقع الخلفي من فكره مخلصاً المكان لمثل أعلى نظري . فيبحث هيجل بعد ذلك عن حل نظري لما اعتقد أنه قد اكتشفه من تعارضات وتمزقات بين الأشكال المتنوعة للوجود ، وهي محاولة تظهر فيها تدريجياً نزعته الصوفية - الحلولية . أما فكرة « الديانة الشعبية » التي أراد بواسطتها حل الصراع ، الذي اعتقد أنه قد اكتشفه ، بين الدين الوضعي والحياة الداخلية للفرد ، فستعطي مكانها لفكرة « الحياة » . وهي فكرة أوسع ، لأنها تتسع تقريباً للكائن كله ، وإن كانت أكثر تجريداً من الأولى .

إن النقد الشديد والجريء للمسيحية الوضعية ، وهو نقد ضروري ، يشكل الهدف الذي سعى إليه هيجل . وهذا هو الموضوع الأساسي لأعماله « اللاهوتية » . ولكن فكر هيجل يذلل هذا الموضوع بأفكار أخرى ، ربما كانت أهم من الموضوع الذي تنتظم حوله . ولكن كما سبق أن قلت ، فهذا النقد لم يقم به هيجل اللاهوتي بل هيجل الفيلسوف المشرب في البداية بأفكار « حركة التنوير » (ليسينج - هردر) وأفكار كانط . وبعد عدة سنوات ومع توسيع المسألة ، فإن الذي يقوم بالنقد هو هيجل المؤرخ ، أو بالأحرى هيجل المؤرخ - الفيلسوف . وفي عامي ١٧٩٨ و ١٧٩٩ نرى مجدداً هيجل الفيلسوف ، ولكنه هذه المرة فيلسوف لا كانطي ، وابن روجي لتاولر وليعقوب بوهمه .

أما كتاب « حياة يسوع » الذي اقدم الآن ترجمته فيشكل مرحلة من الطريق التي قطعها الفكر الهيجلي بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ ؛ إنها المرحلة الكانطية الخالصة .

٢ - تأثيرات ونزعات .

قد يكون مفيداً ، قبل الحديث عن كتاب هيجل ، أن نحاول إبراز النزعات العميقة لروح مؤلفه ، والتي ظهرت في كتابات الشباب . فقد تساعد هذه المحاولة في توضيح أفضل لمعنى كتاب « حياة يسوع » ، وفي تحديد مكانته بين كتابات هيجل اللاهوتية ، وتكون في الوقت نفسه فرصة مؤاتية للتشديد مجدداً على الأصل الديني والصوفي للنظرة الهيجلية ، الأمر الذي سيجعل تلك النظرة ، المتمرسية في البداية على مادة مزودة بالتاريخ الديني ، تصبح ذات أهمية قصوى من أجل فهم المعنى العام لمذهب هيجل اللاحق .

إلا أنه من غير الممكن استخراج النزعات ، أو بعبارة أخرى ردود الفعل الشخصية لروح هيجل الشاب ، دون أن نأخذ بعين الاعتبار ، وفي الوقت نفسه ، بعض التأثيرات الأساسية التي خضع لها .

- أ -

إن البيئة المباشرة التي خضع فيها فكر هيجل الشاب لتأثيرات كبيرة قد وصفها بطريقة مفصلة كل من روزنكرانتس وهاييم وكونو فيشر والسيد بول روك^(١٠) . وهذه بعض أحداثها .

(١٠) = ROSENKRANZ, op. cit.; HAYM, op. cit.; KUNO FISCHER, Bes-

ذكر هايم أن كليات ساكس وفيرتمبرغ كانت في القرن الثامن عشر تدرّس الآداب القديمة دراسة جدية . فتجري فيها دراسات متتابعة للغة اليونانية . وكان الطالب الشاب المنتسب إلى هذه الكليات يترجم أكثر من مرة مسرحية « أنتيجون » وكتاب ابيكتيت ودرس لونغينوس عن « الجماليات » . وكانت الوظائف المدرسية تتخذ موضوعاتها كلها من التاريخ القديم .

وفي هذا الجو دخل هيجل جامعة توبنجن وصار الصديق الحميم لهولدرلين .

ومعلوم أن هولدرلين كان يكنّ اعجاباً حماسياً لليونان . والفكرة الوحيدة التي كوّنّها عن اليونانيين القدماء أنهم شعب بطولي وخالد الشباب ، وأنهم الشعب الوحيد الذي عرف كيف ينمي سائر ملكاته الخلقية والجسدية بطريقة منسجمة ، والشعب الوحيد الذي عرف كيف يخلق حياة جميلة حقاً^(١١) .

وترسّخ الاعجاب الذي كان هيجل يشعر به تجاه اليونان القديمة ، بسبب احتكاكه مع هولدرلين ، فصار اعمق من السابق . وبعث فيه هذا الاحتكاك اليونان القديمة كما تصورها ، خطأ أو صواباً . فقد كانت الحرية السياسية في المدن اليونانية تستوقف انتباهه دائماً ، فيرى فيها أساس الانسانية السامية التي تنامت في تلك المدن .

وكما سنرى فيما بعد ، فإن هيجل أبدى رأيه في المسيحية من خلال الفكرة التي كوّنّها عن اليونان . وفي نهاية المطاف ، فإن اليونان القديمة هي

= chichte der neuen Philosophie (تاريخ الفلسفة الحديثة) Heidelberg, 1901, T. VIII, partie 1; PAUL ROQUES, HEGEL, sa vie et son œuvre, (هيجل ، حياته واعماله) , Paris, 1912.

(١١) شارل اندلر ، « السابقون لنيثشه » ص ٦٨ .

التي أوحى إليه بالرغبة في مستقبل أفضل لشعبه ، وبفكرة « الديانة الشعبية » .

خضع هيجل في جامعة توبنجن لتأثير « حركة التنوير » الذي لم يملأ كلية الفلسفة وحسب بل كلية اللاهوت أيضاً . وكان شتور ، الذي نقد « بطريقة منصفة »^(١٢) كتاب كانط عن الدين ، أستاذ هيجل في كلية توبنجن اللاهوتية .

وقد لاحظ هايم أن شتور كان مؤمناً « بحسب الكتاب المقدس » أكثر من كونه مؤمناً « بحسب الكنيسة » . وهذا ما ينسجم تماماً مع روح « حركة التنوير »^(١٣) .

(١٢) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، مقدمة الطبعة الثانية ، ١٧٩٤ ، ص ١٥ . (انظر مؤلفات كانط الكاملة التي نشرها روزنكرانتس في ليبزغ ١٨٣٨) .

(١٣) بذل لاهوتيو جامعة توبنجن ، وعلى رأسهم شتور ، جهوداً كبيرة من أجل التوفيق بين الايمان والعقل كما عرفته « حركة التنوير » (DILTHEY, op. cit. 10 - 11) . وقد تابع هيجل في النصف الأول من اقامته في توبنجن - وقد بقي فيها خمس سنوات - قراءة المؤلفين الذين كان يفضلهم في مرحلة دراسته الثانوية وهم : كلوبستوك ، فيلاند ، ليسينج ، هرذر وجميع مؤلفي « حركة التنوير » . ولعل قراءاته لليسينج كانت الأكثر ، لأنه غالباً ما يستشهد به في أعماله اللاهوتية ، وحتى في الفترة التي استأثر فيها كانط باهتمامه كلياً ، أي في العام ١٧٩٥ ، عندما كتب « حياة يسوع » .

تناول هيجل في احدى كتاباته في ذلك الوقت مسألة : « هل يمكن القول بواجبات ملزمة حتماً دون التسليم بخلود النفس ؟ » فأجاب وفق مفاهيم فولف تماماً : « ثمة خلقية طبيعية ، إلا أن الدين لا يستطيع أن يسيء إليها ، بل يفيدها » . (K. FIS- cher, op. cit. p. 11) .

قرأ هيجل كتاب كانط عن الدين في العام ١٧٩٤ . أما « نقد العقل الخالص » فقرأه في العام ١٧٨٩ . وفي تلك السنة نفسها بدأ شيلر عمله كأستاذ في جامعة بينا ، وكان مشبعاً بالأفكار الكانطية حول فلسفة التاريخ . (K. FISCHER, op. cit., p. 11,25) . وقد أشار لاسون إلى تأثير شيلر على فكر هيجل الشاب (INTRODUC- TION à la phénoménologie de Hegel, édition du centenaire, p. XXXIX) .

يضاف إلى هذين التأثيرين تأثير آخر عظيم جداً : إنه كانط . فعندما ترك هيجل جامعة توبنجن كان اعجابه بكانط من غير حدود . وكان يقرأ له باستمرار . وليس علينا سوى تصفح رسائله حتى نقتنع بذلك التأثير .

ففي رسالته الأولى إلى شيلينج ، التي يتحدث فيها عن نقد شتور لكتاب كانط عن الدين ، قال إن هذا الكتاب سيُنقَد كثيراً بلا شك ولكن « تأثيره ، الذي لا يزال حتى اللحظة مستتراً ، سيرى النور مع الوقت » .

ونذكر أيضاً تأثير صديقه شيلينج الباكر النضوج ، ذلك التأثير الذي يصعب تحديده^(١٤) ، ولكنه كان عظيماً . ففي تلك الفترة لعب شيلينج بالنسبة إلى هيجل دور المحرك الكبير^(١٥) . وكان تأثير كتب فيخته وشخصيته كبيراً أيضاً^(١٦) .

ولكن يجب ألا ننسى هنا ، أنه بين الأمور الكثيرة التي أثرت بشدة على مخيلة هيجل الشاب ، كان ثمة تأثير لا تمكن معرفته من الكتب ، تأثير لم يكن بحاجة إلى إعادة تشكيله في مخيلته ، كما هي الحال بالنسبة إلى اليونان القديمة ، بل تنشقه مع الهواء الذي كان يتنفسه : إنه الثورة الفرنسية . فقد تسربت اصداؤها الصاخبة من خلال الجدران السميكة للمدرسة الداخلية في توبنجن ، وحتى إلى داخل قاعات المحاضرات نفسها . فرحب بها الأصدقاء الثلاثة : هيجل ، شيلينج وهولدرلين بحماسة ، كما رحب بها عند اندلاعها عالم الفكر في المانيا كلها . وقد حملت المذكرات الخاصة التي كان هيجل يدونها في ذلك الوقت هتافات من نوع : « فلتعش الحرية ! » و « فليعيش جان - جاك ! » (باللغة الفرنسية)^(١٧) .

(١٤) ديلتاي ، « شباب هيجل » . W. DILTHEY, Die jugendgeschichte . Hegels, p. 60, Sqq.

(١٥) هيجل ، الأعمال . HEGEL, Werke, T.XIX, Vol 1, passim.

(١٦) W. DILTHEY, op. cit., 53 Sqq.

(١٧) روى كاتبو سيرة هيجل أن طلاب جامعة توبنجن أسسوا نادياً سياسياً كانوا يناقشون =

التجربة العظيمة التي كان الفرنسيون يسعون إليها في الجانب الآخر من نهر الراين ، من أجل بناء مجتمع انساني جديد على مبادئ عقلية ، لا يمكن إلا أن تملأ روح هيجل وأصدقائه الشباب بالأمل في مستقبل أفضل ، فهم أيضاً أبناء ذلك القرن الثامن عشر المؤمن بالعقل والحرية والفضيلة ، و « بحركة التنوير » التي ربما كان ليسينج أصدق تعبير عنها . والغد الأفضل الذي انتظروه ، إنما كانوا ينتظرونه للبشر كلهم : « يبدو لي أن اهتمامه بالأفكار العالمية يتزايد باستمرار . فليأت ملكوت الله ، ولن يجدنا مكتوفي الأيدي ! » هذا ما كتبه هيجل لصديقه شيلينج في العام ١٧٩٥ متحدثاً عن هولدرلين^(١٨) . لقد آمن هيجل الشاب بقوة ، كما هيجل دائماً ، بارتقاء الإنسانية وبمستقبل أفضل لها . وكان ينتظر في ذلك الوقت أن يتولى سلطان العقل هذا التغيير .

تتضح روح الاصلاح الكامنة في الثورة الفرنسية من خلال مخطط هيجل الشاب لتأسيس ديانة شعبية . وهذه الروح تظهر أيضاً في كتابات أخرى لهيجل (دراسة حول دستور المانيا) ، ولكنه في العام ١٧٩٤ - ١٧٩٥ كان يتصور تحقيق ذلك الاصلاح العظيم بواسطة مشروع اجتماعي - ديني . من المؤكد أن افتتانه باليونان ، كما تصورها هو ، أثر على مشروعه كثيراً . فاليونان هي التي أمدته بالمثل الأعلى لديانة شعبية عظيمة ، ديانة مولودة على أرض الوطن ، فتكون تعبيراً كاملاً لحياة شعب . أما نجاح الثورة الفرنسية فأمدّه بالثقة في امكانية تحقيق مشروعه .

اعتقد هيجل أن الدين ، كما تصوره ، كان حقيقة . وإذن فهو ليس اختلاقاً مخادعاً من المخيلة ، والبرهان هو اليونان . كما أن العقل جدير بتغيير وجه الأشياء الانسانية ، والبرهان هو فرنسا . فلماذا لا تكون الديانة الشعبية

= فيه احداث الساعة ، وقد زرعوا شجرة سموها شجرة الحرية . وكان هيجل وشيلينج من المجموعة .

(١٨) HEGEL, Werke, XIX, Vol 1, p. 13.

مثلاً أعلى يسعى إلى تحقيقه ؟ وذلك بصورة حتمية ، لأن هيجل ، على غرار كانط ، يؤمن أن الأخلاقية لا يمكن أن تتحقق بطريقة مستمرة وكاملة في أفراد منفصلين . إنها على هذا الشكل كانت واقعاً هنا أو هناك ، ولكنها لم تدم . لذلك اعتقد هيجل أنها يجب أن تتحقق في مجتمع بكامله .

ومجمل القول ، أن الينايع التي وجدت فيها روح هيجل غذاءها آبان تلك المرحلة من نموه ، هي دراسته المكثفة لليونانية واللاتينية ، والدراسات اللاهوتية ، التي جرت بفكر منفتح إلى أبعد الحدود ، و « حركة التنوير » ، وكانط ، والثورة الفرنسية التي اعطت السمة الأساسية لروح ذلك العصر ، وصورة مغربة لانسانية يراها هيجل سعيدة وسامية كما كانت معاشة في اليونان .

- ب -

أما الآن فلا بد من الحديث عن بعض النزعات العميقة لروحه (١٩) .

فأول ما يلفت النظر في هيجل الشاب ، رغبته العظيمة في معرفة العالم الخارجي ، وعطشه الدائم إلى الوقائع ، ومحبه لتفاصيل الأمور ، والعمل المستمر الذي أكب عليه من أجل اغناء معارفه ، وقدرته العظيمة على الاستيعاب .

لقد تحدث جميع الذين كتبوا سيرة هيجل ، بدءاً بروزنكرانتس حتى ديلتاي والسيد روك ، عن الكمية الكبيرة من الملاحظات التي دوّنها هيجل آبان دراسته الثانوية ثم الجامعية فيما بعد (٢٠) .

إن اهتمام هيجل بالوقائع ، وفضوله الكلي هما من سمات الفكر التي تقربه من ارسطو . ولهذا السبب ، فإن هايم ، ومن بعده تين ، شبهاه بالفيلسوف اليوناني (٢١) . وقد بقيت هذه السمات فيه دائماً . ولاحظها السيد

(١٩) انظر صفحة (١٥) من هذا الكتاب .

(٢٠) ب . روك ، « هيجل : حياته ومؤلفاته » . ص ٢٢ ، ٣٩ .

(٢١) تين ، « الفلاسفة الكلاسيكيون » ، الطبعة الثانية عشرة ، ص ١٣٣ .

اندلر أيضاً : « إن مذهبه (هيجل) يشتمل على مقدار هائل من الوقائع الوضعية ، وهذا ما ينطبق على الجزء الاقتصادي بمقدار ما ينطبق على سواه . . . » (٢٢) . وقد نوّه أوبرفغ بهذه السمة أيضاً (٢٣) .

وإنني اختار بعض الأمثلة من أجل التوضيح . ففي برن (١٧٩٣ - ١٧٩٦) ، وبعد دراسة هيجل للوضع المالي السائد في المدينة ، كتب عملاً حول الموضوع . ويذكر كاتبو سيرته أنه كتب في موضوع « تحوّل علم الحرب ، المشروط بالانتقال من الملكية إلى الجمهورية » . ورغم أن مركز اهتماماته يبقى الدراسات اللاهوتية ، إلا أنه في المرحلة التي كتب فيها « روح المسيحية ومصيرها » كان يتابع في الصحف البريطانية المباحثات البرلمانية ، ويدرس اصلاح الأراضي البروسية ويكتب نقداً لنظرية جيمس ستيوارت في الاقتصاد السياسي (٢٤) .

ولكنه لم ينكب على عصره وحده . فالتاريخ أيضاً كان في المقام الأول من اهتماماته ، ومنذ وقت مبكر . ويظهر في يومياته (١٧٨٥ - ١٧٨٧) التي كان يكتب معظمها باللاتينية ، أن الزوايا الأبرز كانت تلك التي يصارع فيها للوصول إلى فهم فلسفي للتاريخ (٢٥) .

لم يكف هايم وديلتاي وروك عن الإشارة إلى الاتجاه التاريخي الحاد عند هيجل . فالمشاكل الدينية والميتافيزيقية تتحول بين يديه إلى مشاكل في التاريخ . وقد حفظ هذا الاهتمام بالتاريخ طوال حياته . أوليس فكره ، في النهاية ، عبارة عن جهد عظيم ومستمر للوصول إلى فهم للتاريخ ؟ أوليس الجزء الأساسي من مذهبه ، أي فكرة النشوء ، من وحي التاريخ ؟ صحيح

(٢٢) ش . اندلر ، « أصول اشتراكية الدولة في المانيا » ، ص ١٤٤ .

(٢٣) أوبرفغ ، « أصول تاريخ الفلسفة الحديثة » ، طبعة ١٩٢٣ ، الجزء الرابع ، ص ٨٧ .

(٢٤) ذكر ديلتاي أن قراءات هيجل في تلك الفترة كانت لمونتسكيو وجييون وهيوم وشيلر .

(٢٥) K. FISCHER, op. cit., 7.

أنه حاول بواسطة مذهبه تنظيم المادة ، المتهافئة للوهلة الأولى ، التي يقدمها له التاريخ ، ولكن في العمق فإن تلك المادة هي التي أوحى إليه ، تحت شكل فرضية تحتاج إلى إثبات ، أن مذهبه مهمة يجب إنجازها . أوليس هو الذي جعل الفلسفة تصبح تاريخية ، وعلمها ، إذا جاز التعبير ، أن ثمة حقيقة تاريخية يجب العمل على فهمها ، أي حقيقة تاريخية مهمة مثل الحقيقة المادية ، ولكنها أقرب إلى العقل الانساني ؟ (٢٦) .

إن تدرس فكر هيجل الشاب بالمادة التاريخية أولاً ، كان هاماً إلى أقصى الحدود بالنسبة إلى مذهب هيجل الفيلسوف . وهذا الاتجاه في الفكر الهيجلي لا يُعزى إلى الصدفة المحضة ، بل يتوافق مع ميل عميق في روحه . وقد شدد ديلتاي على هذا الاتجاه ، وكان محقاً تماماً في ذلك .

المشكلة التي طرحها هيجل هي علاقة معطيات النقد الكانطي بالدين ، كما حمله إلينا التطور التاريخي ، أي بالدين الوضعي . وهكذا تساءل : ما هو مصدر العنصر الوضعي في الدين المسيحي ؟ وهذه هي المشكلة التي سعى إلى حلها في كتابه « نقد المسيحية الوضعية » . والحال أن تلك المسألة ، التي كان ممكناً أن تُعالج بطريقة فلسفية محضة ، تحولت بين يدي هيجل إلى مسألة في التاريخ . فقد وصف لنا البيئة اليهودية التي نشأ فيها الدين الجديد ، وسعى إلى فهم ظهور المسيح تبعاً لتلك البيئة . فالمسيح يمثل رد فعل بالنسبة إلى روح تلك البيئة ، وتمرداً من الطبيعة البشرية ، الحرة

(٢٦) حول هذه النقطة ، يظهر أن اوبرفغ قدّر بحق الاسهام الشخصي لهيجل (الفيلسوف فيها بعد) في تطور الفكر الانساني ، بقوله إن القيمة الكبرى لهيجل تكمن في كونه قد جعل من الحقيقة التاريخية بمجملها موضوعاً للفلسفة . وبالتالي ، فإننا إذا تناولنا تاريخ الفلسفة بهذا المنظار نجد أن جذّة المذهب الهيجلي مذهلة . فديكارت واسبينوزا وليبنيتز وهيوم كانوا فلاسفة لا تاريخيين . انظر أيضاً : بنديتو كروتشه ، « ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيجل » ، ترجمة بوريو ، باريس ١٩١٠ ، ص ٥٦ ، ١٤٥ وما يليها . وانظر أيضاً « منطق » المؤلف نفسه ، « المنطق كعلم المفهوم الخالص » ، الطبعة الرابعة ، باري ١٩٢٠ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

في جوهرها ، ضد الشكلية الصارمة للثيوقراطية اليهودية (٢٧) .

بحث هيجل في تلك البيئة عن العناصر التي ضغطت على دين المسيح فجعلته وضعياً بالضرورة . وحاول من جهة أخرى تبين العوامل النفسية المستترة ، كالبذور ، في تعليم المسيح نفسه ، والتي أدت إلى تحول دينه إلى دين وضعي . ولكن هيجل لم يبق هنا ، بل وسّع المسألة ، ودائماً كمؤرخ : تغيير البيئة بتشتت الأمة اليهودية ، صيرورة الدين المسيحي دين الدولة في امبراطورية عظيمة . . . الخ . فعلى هذا النحو كان فكر هيجل الشاب يعمل في العام ١٧٩٥ ! وهكذا نرى أننا نواجه مؤرخاً - فيلسوفاً أكثر مما نواجه فيلسوفاً بالمعنى الخالص .

وقد ضوعف هذا الميل العميق إلى مواجهة المسائل تاريخياً بميل آخر أوجد سمة سيطرة بدورها على روح هيجل الشاب مثل سيطرة اهتمامه الحاد بالتاريخ عليها . إنه احساسه الديني العميق والحنين الصوفي للذات تحدثت عنهما سابقاً .

يبدأ كل شعور ديني ، على الأرجح ، في الاحساس بالتناقض الموجود بين حياة الفرد المحدودة وحياة الكون اللامتناهية ، وفي احساس الانسان برغبة حارة ومؤلمة في إزالة هذا التناقض وردم تلك الهوة . وقد احس هيجل الشاب بذلك التناقض مع قلق ، وتجلّى في شعوره كنوع من التمزق المضي ، فصارت الحاجة إلى اتحاد كامل وحي مع الكل تحز في نفسه كل لحظة . فكل تناقض يسبب له ألماً . لذا أراد هيجل أن يصالح كل الأمور بواسطة مفهومين ، هما فكرة « الحياة » وفكرة « الحب » . وقد لعب هذان المفهومان دوراً أساسياً في كتابات الشباب .

وبهذا المنظار ، فإن أكثر ما يعبر عن تلك النزعة هي الأفكار الرئيسية « لشاريعة » غير المنجزة : « أخلاقية ، حب ، دين » ؛ « حب ودين » ؛

(٢٧) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

« الحب »^(٢٨) . ومن جهة أخرى فإننا نرى في الشذرات التي نشرها نول بعنوان : « روح المسيحية ومصيرها » ، أن المقولة الأسمى بالنسبة إلى هيجل هي الحياة .

وبواسطة هذين المفهومين للحياة والحب عارض هيجل « حركة التنوير » وكانط وتجاوزهما . وبالاستناد إلى المفهومين نفسيهما نقد بخشونة الديانة اليهودية ، والمسيحية التي تحدّرت منها .

ويمكن القول إن تلك الحاجة الملحة إلى جمع الكل في وحدة حية ومنسجمة ، والميل الروحي عند هيجل إلى مصالحة كل المظاهر المتناقضة في حياته الداخلية الخاصة أولاً وفي الواقع الخارجي تالياً ، هما اللذان خلقا تركيب المواد المختلفة عن المادة التي تنزع إليها روحه ، فاندفع إلى جمعها بهمة تشبه همة النحلة . وهكذا فإن هيجل المفكر الصوفي هو الذي أضفى ، برده فعل أصيلة من روحه ، صبغة فريدة على كل ما درسه هيجل المشغوف بالواقع ، والملتصق بالحقيقة الخارجية .

- ج -

بعد الإشارة إلى السمتين البارزتين لروح هيجل الشاب ، فلنر عن قرب الطريقة الخاصة التي تلقى بها تأثير البيئة الايديولوجية والأخلاقية التي اشترت باختصار إلى أهم عناصرها في القسم الأول من هذا الفصل .

ونبدأ « بحركة التنوير » . فهي بالتمييز القاطع الذي انشأته بين دين داخلي تماماً ودين تاريخي تحقق في المسيحية الوضعية ، تحت اسمي « الدين العقلي » و « الدين الوضعي » ، جاءت لتدعم وتعمق الشعور بالتنافر الذي كانت روح هيجل الشاب الدينية تحس به بعمق بين هذه الوقائع نفسها .

إننا نعلم أن ليسينج كان يحب التمييز بين العنصر الأزلي والعنصر

(٢٨) نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

التاريخي لكل دين^(٢٩) . وقد تبني هيجل الشاب فكرة ليسينج بأن الحقائق الأزلية لا يمكن أن تثبت بواسطة تقاليد تاريخية ، وجعلها فكرته دائماً .

واحد البنود الهامة لعقيدة هيجل الفلسفية سيكون ، فيما بعد ، القناعة الراسخة بأن الحقائق الأزلية يجب أن تؤسس على العقل وحده ، وأن تستنتج من جوهره^(٣٠) . ولهذا السبب لم يعلق أية أهمية على المعجزات ، فقدم لنا « حياة يسوع » من غير معجزات . وكتب : « المعجزة هي الخلق » من « عدم » ، ولا توجد فكرة أقل منها توافقاً مع الألوهة . إلا أن عنده سبباً آخر وأقوى لحذف المعجزات . وهذا الدافع أملته عليه النزعة الصوفية لفكره ، ولذلك قال : « المعجزة تمثل ما هو أبعد ما يكون عن الألوهة لأنها ما هو أبعد ما يكون عن الطبيعة ؛ ولأنها تؤكد ، بعنفها المخيف ، أقصى التنافر بين الروح والجسد . العمل الإلهي هو تجديد الوحدة وإعادة تكوينها ، أما المعجزة فهي أقصى التمزق »^(٣١)

ولكن هيجل الذي يقبل تمييز « حركة التنوير » بين الدين العقلي أو الخلق ، وبين الدين الوضعي ، لا يؤمن أن الدين يمكن أن يكون مسألة خاضعة للاستدلال النظري . فقد ردد دائماً أن الدين من شأن القلب ، وأن استفادته من الذهن محدودة ، لأن وسائل الذهن تبدّد القلب أكثر مما تؤججه^(٣٢) .

وهكذا نرى أن هيجل عارض « حركة التنوير » رغم تأثره بها . وفي إحدى شذراته وعنوانها « حركة التنوير ورغبة التأثير بواسطة الفهم » نراه يوسع هذه الفكرة الغربية تماماً عن روح « حركة التنوير » فيقول إن الفهم ،

(٢٩) W. DILTHEY, op. cit., p. 24.

(٣٠) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (نقد المسيحية الوضعية) ، ص ١٦١ .

(٣١) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (روح المسيحية) ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٢) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (الديانة الشعبية والمسيحية) ص ٥ ، ١٤ و ١٥ .

كانط عن الدين ، حتى أن أثر ذلك الكتاب عليه كان عظيماً . فالمسألة الأساسية التي تهمه مسألة خلقية . ولكنه ، بخلاف كانط ، يعالجها تاريخياً . فيجسم - إذا جاز التعبير - المعطيات الأساسية لفلسفة كانط الدينية والتجربة الداخلية التي كانت روحه الخاصة مسرحاً لها ، في شخصية تاريخية . وفي هذه الفترة كتب « حياة يسوع » .

ولكن رغم سعي هيجل إلى تجاوز فلسفة « حركة التنوير » ، مع احتفاظه ببعض عناصرها ، فإنه سعى أيضاً إلى تجاوز وجهة نظر كانط في ما يتعلق بالدين .

وكما ذكرت سابقاً ، فإن هيجل استطاع الشروع بتلك المهمة ، بواسطة تقصي المسألة تاريخياً ، ثم بواسطة تبديل صوفي لبعض معطيات التصور الديني لكانط .

إنه لم يحارب منهج سلفه العظيم ولكنه حارب نتائجه . فما رفضه من كتاب كانط هو الجزء الذي يجمع فيه كانط بعمق أفكار « حركة التنوير » ، لأن هذه الأفكار لا تتناول دين يسوع ، وكل دين آخر ، إلا في علاقته مع الإصلاح الخلقي للانسان (٣٧) . وهكذا تأخذ المحبة ثأرها من صوت الضمير كما صورّه كانط . ففي « روح المسيحية » حارب هيجل كانط وناموسه الخلقي وشرح دين المسيح بطريقة مختلفة عما فعله في « حياة يسوع » ، فأظهر أن خلقية يسوع ليست خلقية الناموس بل خلقية المحبة .

إن الشريعة اليهودية ، إذ تؤكد وجود علاقة خارجية تماماً بين الله والانسان ، إنما تؤكد وجود انفصام بينهما . والناموس الخلقي لكانط ينشئ بدوره انفصاماً بين الذات الفاعلة وبين الناموس الخلقي ، فالأولى فردية أما الثاني فعام وكلي . لكن يسوع ، بتأسيسه دين محبة ، ابدل الناموس الخلقي بنمط من الشعور ، أي بميل إلى العمل على هذا النحو . وهذا الميل أساسه

(٣٧) كانت هذه الفكرة تتكرر بلا توقف في ذلك القرن (انظر Diltthey op. cit) .

من صلبه ، وموضوعه المثالي في ذاته لا في أي شيء غريب (أي في ناموس العقل الخلقي) .

« الخلقية عند كانط هي بالأحرى اخضاع الفردي للكلي ، وانتصار هذا على ذاك ، أي على نقيضه ، أكثر من كونها رفع الفردي إلى مستوى الكلي ، وأكثر من وحدة المتناقضين أو حذفهما » (٣٨) . والخلقية عند هيجل يجب أن تكون الغاء هذا الانفصام الذي تظهره الحياة ، فهي تخلق ذلك الانسجام بالمحبة التي تستبعد أية فكرة للواجب .

إن كانط بتأكيد سيادة الناموس الخلقي على ميول الانسان ، يؤكد بهذا الكلام نفسه سيطرة المفهوم العقلي المحض على الحياة . والاختلاف بين الناموس الخلقي عند كانط والشريعة اليهودية ليس إلا اختلافاً شكلياً ، فكلاهما يقيمان انفصاماً بدل أن يلغياه . وإذا كانت الشريعة اليهودية تُنصب معلماً خارج الانسان ، فإن ناموس كانط يدخل معلماً في قلب الانسان نفسه . ولهذا السبب ساوى هيجل هذه المرة بين ناموس كانط والشريعة اليهودية . فناموس كانط يمزق الوحدة الحية للنفس ، لأنه هو أيضاً يقيم تناقضات (٣٩) .

ولكن إذا كنا قد وصلنا إلى هذا الحد في كلامنا على فكرة « المحبة » التي توحد وتصلح التعارضات ، فلنذكر هنا تلك السطور التي كتبها هيجل : « المحبة لا تعبر عن أي واجب . إنها ليست أمراً كلياً يتعارض مع أمر خصوصي . ولا هي وحدة من عمل الفكر المجرد ، إنما هي وحدة تخلقها الروح . إنها طريقة وجود الهية . أن تحب الله يعني أن تشعر بنفسك عائشاً في وحدة مع الكل ، وأن تشعر بنفسك عائشاً في الحياة اللامتناهية الخالية من الحدود . أما القول : « احب قريبك كنفسك » فلا يعني أن تحب قريبك بقدر ما تحب ذاتك ، لأن محبتك لذاتك لا معنى لها ، ولكنه يعني :

(٣٨) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٧ .

(٣٩) نفسه ، ص ٢٦٤ - ٢٧٥ ؛ ٢٩٣ - ٢٩٦ ؛ ٣٨٦ - ٣٩٥ .

احبب قريبك لأنه أنت ! » (٤٠) . وهكذا تكون المحبة نوعاً من الوعي الخارق لعمق وحدة الحياة .

نرى إذن ، أن عمل هيجل يتوالى من جهته النظرية الخالصة تحت تأثير كانط ، ولكن بمعارضة لكانط ، وبالتصدي لجميع التعارضات الحادة التي أنشأتها « حركة التنوير » بين مفاهيم مثل : الله والعالم ، الحرية والطبيعة ، الفهم والعاطفة . وقد فعل هيجل ذلك بمقتضى التكون الخاص لفكره أولاً ، وتحت وطأة اتجاه عام أخذ يؤكد الفكر في عصره (٤١) .

فقد بدأت الفلسفة تعارض جفاف العقل في « حركة التنوير » والعلوم الطبيعية (٤٢) ، مستوحية مثل الشعر ولا سيما شعر غوته العظيم . وكشف هولدرلين في كتابه « هيباريون » (١٧٩٤) عن حلولية أساسها وجد الفنان . فالعقل في رأيه لا يستطيع فهم اللامتناهي . ومن أجل فهمه لا بد من الإلهام . وهذا ما أكدته هيجل بقوله إنه من أجل الكلام على الله يجب أن نكون ملهمين (٤٣) .

أرادت الفلسفة ، وربما بتأثير من غوته ، أن تؤكد بدورها حقوق الخدس على مفاهيم الفهم المجردة . وهكذا سيفهم هيجل ، وهو مؤلف « المنطق » و « الموسوعة » ، الفهم والعلم « بأنها يحرمان الطبيعة من ربيعها » ، وسيكون طموح فلسفته رسم الطبيعة على مستوى الفكر ، ولكن مع انقاذ « ربيعها » ، وانشاؤها مع الحفاظ عليها حية ، كما يتناولها الخدس .

(٤٠) نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٤١) كان تأثير شيلينج كبيراً في هذا المجال . فالمثالية الموضوعية تحولت عنده إلى حلولية (ديلتاي ، ص ٥٧) . ولكن هذا التصور الحلولي ظهر أيضاً في أعمال شعراء مثل غوته وهولدرلين .

(٤٢) وصف هوفدنج هذا الاستعداد وصفاً طريفاً (تاريخ الفلسفة الحديثة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٩ - ١٤٣ ، ترجمة بورديه ، باريس ١٩٠٦)
(٤٣) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٠٥ .

ويستشهد بغوته في هذه المناسبات : « إنه (غوته) يحس بالحياة ويوحدتها الكلية . ويستشف أن الكون وحدة عضوية وكل عقلائي » (٤٤) . وهكذا كان الهدف الذي اتجه إليه جهد الفكر الهيجلي : اعطاء تعبير عقلي للخدس غوته هذا (٤٥) .

لقد جزأ نقد كانط - إذا جاز التعبير - الوحدة الحية للطبيعة . فلا توجد لديه فكرة الكلية ولا مفهوم الكل . فيبدو الانسجام الحي للروح وكأنه يعاني من تحليلاته وتمييزاته . فنقده يفرق كل شيء ، ويرفع حواجز في كل أمر . فلم تعد الروح قادرة على العبور من شكل جوهرى للكائن إلى شكل آخر . وهذه الحدود تجعل تحقيق فكرة التطور ممتهناً . وقد أراد المفكرون الذين جاؤوا بعد كانط إعادة انشاء الوحدة ، وحاولوا أن يعيدوا البناء حيث بدا لهم أن كانط كان يهدم . وهكذا فإن موضوع الفلسفة عند هيجل سيكون ترميم الانسجام المهتم في الروح (٤٦) .

كان هيجل أكبر المثاليين بعد كانط ، وقد اجتمعت فيه مختلف طموحات الفلسفة الرومانطيقية ، ومارس هذه النزعات على حد تعبير أوبرفغ . ودفعته عاطفته الدينية العميقة وحاجته الشديدة إلى الوحدة مع الكل والنزعة العامة لفكر عصره ، إلى اطلاق نزعته الصوفية والاستسلام لطابع روحه الحلولي . . .

ولكن ، ماذا حصل ؟

المؤلف نفسه الذي كتب في العام ١٧٩٩ « روح المسيحية » والذي استشهدت سابقاً بجملة مميزة منه ، أعلن لشيلينج في العام التالي : « في نموي العلمي ، المنطلق من حاجات الانسانية الدينية ، ما اضطرني أن أعود

(٤٤) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد السابع ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

(٤٥) انظر في هذا المجال المقارنة التي قام بها هيجل نفسه بين الشعر والفلسفة النظرية (هيجل ، « الأعمال » ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٤) .

(٤٦) هيجل ، الأعمال ، المجلد الأول ، ص ١٧٢ - الفروق بين فلسفة فيخته وشيلينج .

إلى العلم قهراً . والمثل الأعلى لشبابي اضطر إلى اتخاذ صيغة عقلانية ، بل اضطر أن يتحول إلى مذهب . . . » (٤٧) .

والحقيقة أن الجانب العقلي ، وكذلك الجانب الواقعي لفكر هيجل ، كانا بمثابة الكابح لنزعة الصوفية . ولذا يجب القول عند الحديث عن نزعة هيجل الشاب الصوفية أنها ليست إرادة الاضمحلال في الكل ، الكل الذي سيثبتته الفكر وحده بطريقة مطلقة ، عن طريق رد كل ما تقدمه الحقيقة الواقعية من فردي ، وكل حركة إلى ظاهر بسيط . صوفية هيجل ليست صوفية السكون ، أنها صوفية دينامية ، إذا جاز التعبير . وهي تتغذى بالوقائع . فالكل عند هيجل هو حياة . ولكن مقولات الفهم لا تتناول سوى كلي مفرغ من كل عنصر فردي أو ميزة خاصة ، ولذلك رفضه هيجل . والناموس الخلقى عند كانط مرفوض بدوره ، فهو لا يقيم وزناً لما هو فردي ، ما دام يسحق الفرد .

تصور هيجل أن العلاقة التي تربط الفرد بالكون ، الذي هو حياة ، علاقة عضوية بين الكل وجزئه . وهكذا ، لا يمكن إثبات كون الأجزاء موجودة ومعقولة ما لم نثبت الكل في الوقت نفسه . والعكس صحيح أيضاً ، فالكل لا يمكن أن يُعقل من دون الأجزاء . فهو لا يستوعبها في تماثل مجرد (هوية مجردة) ، بل يؤكد حتمية وجودها الحقيقي (٤٨) .

بادراك هذا النوع من العلاقة ، وتطبيقها على الكائن بكامله ، امتلك هيجل معنى الوحدة الحية والعضوية للعالم (٤٩) فحدّد سمة الواقع بمجمله بأنها

(٤٧) يرجع أن هيجل يتحدث عن الفقرة التي نشرها نول من مذهبه . وفي الرسالة نفسها إلى شيلينج يعلن قراره بأن يكرّس نفسه كلياً للدراسة . وهذا ما فعله في جامعة بينا حيث عمل على التدوين الأولي لمذهبه . ولكن هذا المذهب لم ينشر إلا سنة ١٩١٥ في هايدلبرغ تحت عنوان : المذهب الأول لهيجل (Hegels Erstes System) . وقد نشره السيدان هانتس آرانبرغ وهريبرت لينك .

(٤٨) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٤٧ - ٣٥١ .

(٤٩) فكرة العلاقة العضوية ستصبح الفكرة الأساسية في المذهب الهيجلي .

حياة . أما الرباط الذي يوحد ويجمع الكل والأجزاء فيسمى المحبة . وهذان المفهومان كشفّا له لغز شخصية المسيح وأوضحا له المعنى العميق للدين المسيحي . ومن جهة أخرى ، فإنه كان مقتنعاً في تلك المرحلة أن الكون ، أو الكل ، لا يمكن أن يُدرك بالفكر بل بالدين وحده . صحيح أنه غير رأيه فيما بعد ، ولكن في تلك الفترة كانت هذه هي الكلمة الأخيرة لحكمته .

وقد كتب هيجل « حياة يسوع » تلبية لهذا الواجب . وسعى فيه إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

وهكذا جعل هيجل من يسوع كانظياً قبل وجود كانط ، إذا جاز التعبير . فنحن نسمع مسيح هيجل يتكلم وكأنه تلميذ لكانط ، فيتحدث عن العقل ، القياس الأسمى للاعتقاد والمعرفة ، « القياس الذي للألوهة أيضاً » ؛ وعن العقل « الذي لا تستطيع أية سلطة على الأرض أو في السماء أن تجد مقياساً للحكم عليه » سوى ما تأخذه منه بذاته ؛ وعن العقل الحر الذي يملئ على ذاته ناموس سلوكه الخلقي ، وهو ناموس « مقدس » ، « ناموس تحرير يخضع له الإنسان . . . بحرية » ؛ وعن العقل « الذي يفرض الخلقية كواجب » ، وكواجب أوحده ؛ وعن عبادة الله المؤسسة على الناموس الخلقي (٥٣) .

وحسب يسوع هيجل فإن الاعتقاد بالعقل وطاعته وحدهما اللذين يمنحان الإنسان السلام والعظمة الحقيقية « لأن الإنسان لا يحقق مصيره السامي إلا بإيمانه بالعقل » (٥٤) .

فهل ثمة حاجة إلى القول إن المسيح الذي احبته الأناجيل وتحدثت عنه لم يتكلم يوماً بمثل هذه اللغة ، وإنه من غير المرجح أن يكون قد قام بمحادثات عن « الخدمة المتجددة للعقل المستقر في حقوقه » (٥٥) .

في رسالة إلى شيلينج مؤرخة في ١٦ نيسان ١٧٩٥ (٥٦) ، يتعجب

(٥٣) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٦٧ ، ١٠٩ - ١١٠ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ٥٤

(٥٥

(٥٤) انظر الصفحتان (٥٣ - ٥٤) من هذا الكتاب .

(٥٥) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ١١٣) .

(٥٦) بدأ هيجل بكتابة « حياة يسوع » في التاسع من أيار سنة ١٧٩٥ .

٣ - « حياة يسوع »

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عامي ١٧٩٠ و ١٨٠٠ ، كما اشرت سابقاً . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين . وأشار ديلتاي إلى أنه كتاب هيجل الأول . وعلى أية حال ، فهو الكتاب الوحيد المنجز تماماً من بين كل ما نشره نول .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط ، بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لتفحص الوحي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين . فإذا نجحت التجربة يمكن القول بوجود تلاؤم بين العقل والكتاب المقدس (٥٠) . كان كانط يرى أن الاعتقاد الديني الخالص هو التأويل الأسمى للاعتقاد الوضعي (٥١) . وهكذا سعى إلى أن يكتشف في الكتاب المقدس معنى « يكون في انسجام مع اقدس تعاليم العقل » . وكان كانط يرى أن هذا السعي واجب (٥٢) .

(٥٠) مقدمة الطبعة الثانية من كتاب كانط ، « الدين في حدود العقل » ص ١٣ - ١٤ .

(٥١) نفسه ، ص ١٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ص ٩٨ .

هيجل - عن خطأ أو عن صواب ، فليس لنا أن نحكم في ذلك هنا - من الكشف « المتأخر » جداً للكرامة التي يضيفها على الشخص الانساني استقلاله الخلقي . فالقيمة الخالدة لفلسفة كانط العملية تقوم في نظر هيجل الشاب على هذا الكشف . ويقول ما جوهره إن هذا الكشف أنصع علامة للأزمة التي نعيش فيها « ودليل على أن الهالة التي تحيط برؤوس طغاة هذا العالم وأهله تختفي » . فالفلاسفة يسعون إلى إقامة الدليل على هذه الكرامة ، وستعلم الشعوب كيف تعيها (٥٧) .

والمسيح في « حياة يسوع » أحد هؤلاء الفلاسفة . إنه يتكلم غالباً على كرامة الانسان الحر خلقياً والذي ينال ، بفضل عقله ، ملكة « استخلاص مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة ارادتها . . . » فيعظ تلاميذه : « أيها الأصدقاء ، أقول لكم ألا تخافوا البشر الذين لا يستطيعون في الحقيقة أن يقتلوا سوى الجسد ، ولا تمتد قدرتهم إلى أبعد من هذا ، ولكن خافوا أن تهان كرامة روحكم ، فتظهروا أمام العقل وأمام الألوهة مستحقين لفقدان السعادة الأسمى » (٥٨) .

إن مهمة مسيح هيجل على الأرض تكمن في جعل البشر أكثر نبلاً ، بأن يوقظ في روحهم وعي كرامتهم ، ويجعلهم يعرفون الناموس الداخلي الذي يجب أن يخضعوا له بحرية (٥٩) . إنه يوجز الناموس الأساسي لتعليمه بالصيغة الكانطية الشهيرة : « تصرفوا بحسب مبدأ أساسي ، على أن يكون بإمكانكم أن ترغبوا في أن يطبق عليكم أيضاً ، بصفته قانوناً عاماً للبشر » (٦٠) .

وهكذا نرى أن الهدف التي تابعه هيجل الشاب في « حياة يسوع » هو

(٥٧) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، ص ١٥ .

(٥٨) انظر الصفحتين (٦٦) و (٩٠) من هذا الكتاب .

(٥٩) انظر الصفحتين (٧٩) و (١٢٣) من هذا الكتاب .

(٦٠) انظر الصفحة (٦٣) من هذا الكتاب .

التجربة التي أوحى بها كانط ، والتي تحدثت عنها سابقاً : الكشف عن معنى في الكتاب المقدس « يكون منسجماً مع أقدم تعاليم العقل » .

لقد تصرف هيجل بحرية لا تحسب أي حساب لنص الأناجيل نفسه ، فأعطاه معنى كانطياً تماماً . فتحول مذهب يسوع التعليمي ، بكل بساطة ، إلى خلقية كانطية . ولكن ألم يقل كانط : « مع أن هذا التأويل يمكن أن يبدو جبرياً إزاء نص الوحي وكأنه مبالغ فيه ، وقد يكون مبالغاً فيه فعلاً ، فإنه يكفي أن يستطيع هذا النص تحمله حتى نفضله على أي تأويل حرفي خالٍ من أية فائدة للخلقية ، أو حتى مضاد تماماً لدوافعها » (٦١) ؟ لقد رأى كانط أن الإصلاح الخلقي هو الغاية الحقيقية لكل دين عقلي ، وهذا الأمر كان يراه هيجل أيضاً في ذلك الوقت .

وهكذا حذف ببساطة المعجزات التي ترونها الأناجيل ، وقدم لنا في العام ١٧٩٥ « حياة يسوع » من دون معجزات . وقد قارن ديلتاي « حياة يسوع » هذه بمسرحية قديمة ، وبأنتيجون مأساة سوفوكليس ، حيث ينشب الصراع بين نواميس الطبيعة السرمدية التي تمثلها أنتيجون وبين النواميس الوضعية .

وكما أشرت سابقاً فإن المحبة ، الدافع الأساسي في الخلقية والدين اللذين أسسهما المسيح ، هي هنا تابع لصوت الضمير بحسب كانط . فتحت تأثير كانط يشدد هيجل دائماً على قدرة العقل البشري على أن يفرض ناموسه على نفسه . ولهذا السبب فقد اعتبر أن الخلقية مؤسسة في جوهر العقل . و « هكذا فإنه نقل إلى عصر المسيحية الأولى وجهة النظر هذه ، إضافة إلى النفور العميق ، المرير والشخصي ، الذي يحس به نحو الدين الوضعي وعقائده وطقوسه » (٦٢) .

(٦١) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، ص ١٣٠ و ١٣١ .

(٦٢)

بعد كل ما ذكرناه يبدو جلياً أن « حياة يسوع » ليس ترجمة للأناجيل كما يمكن أن يفهم من العنوان الثانوي الذي وضعت منشورات روك . والاستشهادات التي سبق ذكرها تشهد بنفسها على ذلك بطريقة كافية . وكذلك فإن طبعة نول تنقصها الحاشية التي أضافها هيجل نفسه إلى العنوان الأساسي لكتابه ، وهي : « توفيق بين الأناجيل حسب ترجمتي الخاصة » .

ولكن كيف نفسّر هذه الحاشية الآن ؟ هل أن هيجل لحظة قراره كتابة « حياة يسوع » وضع خطة للقيام بترجمة نصوص الأناجيل ، ثم ترك هذه الخطة عندما بدأ الكتابة فعلاً ؟ هذا أمر محتمل .

ولكن الأكثر احتمالاً أن الحاشية موضوع التساؤل يجب أن تُفسّر على الشكل التالي : من المؤكد أن هيجل ، أثناء تأليفه الكتاب ، راجع النص اليوناني للكتاب المقدس^(٦٣) ، وهكذا فإن لفظة ترجمة تشير ، على الأرجح ، إلى هذا الأمر وحسب . أما كلمة « توفيق » فتوضح أن مؤلف « حياة يسوع » سعى إلى مزج الروايات الأربع للأناجيل ، المتباعدة إجمالاً ، في رواية واحدة .

فإلى أي حد استوحى هيجل كلاً من الأناجيل الأربعة ؟

انجيل لوقا هو المصدر الأساسي الذي استوحاه هيجل ، وقد استعمله قبل سواه وأكثر من سواه . وهذا الواقع يفرض نفسه عند مقارنة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . فباستثناء المقاطع التي يروي فيها الانجيلي معجزات يسوع ، والتي حذفها هيجل بكل بساطة^(٦٤) ، فإن رواية لوقا مرّت بكاملها في « حياة يسوع » .

وأكثر من ذلك فإن هيجل يروي قصة المسيح محافظاً على الترتيب

(٦٣) انظر الهوامش التي سجلها هيجل في الصفحتين (١٢٥) و (١٣٦) من هذا الكتاب .

(٦٤) انظر الصفحة (٣٨) من هذا الكتاب .

الزماني الذي راعاه لوقا ، باستثناء بعض الفوارق غير المهمة^(٦٥) .

وعلى سبيل المثال ، فإن مؤلف « حياة يسوع » يستبق الترتيب الزمني الذي اتبعه متى (لم يذكر سوى نهاية حياة يوحنا المعمدان (متى ١٤ : ١ - ١٢) ، أما هيجل فإنه يروي في بداية كتابه كامل حياة يوحنا المعمدان ، كما فعل لوقا في انجيله (لوقا ٣ : ١ - ٢٠)^(٦٦) .

واشارات هيجل إلى الأناجيل تعزز بدورها ما أنا بصدد قوله عن علاقة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . لأننا إذا وضعنا هذه الاشارات في أربعة أعمدة ، بحيث يعود كل منها إلى أحد الأناجيل الأربعة ، فإننا نلاحظ أن عدد الاشارات إلى انجيل لوقا يفوق كثيراً الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ، وأكثر من ذلك ، فإنها تتوالى بحسب تسلسل فصول انجيل لوقا نفسها ، وهذا ما لا ينطبق على الاشارات التي وضعها مؤلف « حياة يسوع » بالنسبة إلى الأناجيل الأخرى^(٦٧) .

(٦٥) إن هيجل لم يحافظ مثلاً على الترتيب الزمني للوقا في حديثه عن دعوة متى - لاوي بعد العظة على الجبل . فحسب لوقا (٥ : ٢٧ - ٣٢) تمت دعوة لاوي قبل العظة على الجبل . وهنا تتبع هيجل ما كتبه متى (٩ : ٩ - ١٣) . ولكن من المؤكد أن هذا الأمر لا أهمية له .

وقد غير مؤلف « حياة يسوع » الترتيب الذي اتبعه لوقا ، فسرّد محادثة يسوع مع زكا بعد مثل الوزنات العشر . وقد وضع لوقا هذه المحادثة - التي لم يذكرها سواه من الانجيليين - بعد مثل الوزنات العشر (لوقا ١٨ : ٣١ - ٣٤ ولوقا ١٩) . وبهذا التغيير جعل هيجل الرواية أكثر وحدة مما هي عند لوقا . لأن مثل الوزنات العشر يرتبط بدقة بتطور الأفكار عند يسوع حول موضوع الموت الذي ينتظره ، وموضوع العلاقات التي يعتقد يسوع أنها قائمة بين الله والبشر . وقد استخدم هذا المثل لتوضيح أفكاره بنموذج محسوس . ولهذا السبب فإن مكانه حيث وضعه هيجل .

(٦٦) انظر الصفحة (٤١) من هذا الكتاب .

(٦٧) تبدأ الاشارة إلى نصوص لوقا في الفصل الثاني وتتوالى تدريجياً حتى الفصل الثاني والعشرين من هذا الانجيل الذي يحتوي على أربعة وعشرين فصلاً . أما الفصل الخامس فهو الوحيد الذي لا يوجد ضمن هذه السلسلة الطويلة ، لأن لوقا لا يروي =

ولكن هيجل لم يحفظ الترتيب الزمني لانجيل لوقا ، بل راعى أيضاً الطريقة التي يروي بها هذا الانجيلي بعض الأحداث .

ففي مثل الأمير الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بوليمة فاخرة^(٦٨) ، نجد أن رواية هيجل أقرب إلى رواية لوقا (الفصل ١٤) منها إلى رواية متى (الفصل ٢٢)^(٦٩) ، رغم أن الإشارة هنا إلى متى : « . . . فاعتذر أحدهم عن عدم المجيء لأن عنده أرضاً يجب أن يراها ، والثاني بأن عليه أن يذهب لتجريب خمسة أزواج من الثيران قد اشتراها . أما الثالث فبرر غيابه بأنه قد تزوج . . . »^(٦٩ مكرر) وهذه الأمور يرويها لوقا ، أما متى فاكتفى بالقول إن المدعويين « . . . ذهبوا ، الأول إلى حقله ، والثاني إلى تجارته . . . » ويروي متى أيضاً أن المدعويين قتلوا العبيد ، الأمر الذي دفع الأمير إلى إرسال جنوده لمعاقبتهم . وهذا الحدث لم يذكره لوقا ولا هيجل .

فيه سوى المعجزات . ولا توجد إشارات إلى الفصلين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من انجيل لوقا ، لأن انجيل مرقس يروي آلام المسيح وموته بشكل أكثر تفصيلاً ، لذلك استوحاه هيجل . أما الفصل الأول من انجيل لوقا الذي يروي ولادة يوحنا المعمدان وبشارة مريم فلم يستعمله هيجل .

ولكن الاشارات إلى متى مختلفة . فبعد الاشارات إلى الفصول الأول والثاني والثالث في مطلع كتاب هيجل ، نجد إشارة إلى الفصل الرابع عشر . ثم تتوالى الاشارات بحسب ترتيب فصول انجيل متى نفسها (٤ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨) ، ولكننا نجد بعد ذلك ثلاث اشارات متباعدة (الفصول : ١١ ، ١٦ ، ٢٣) . والسبب في ذلك أن الأحداث التي يرويها متى في هذه المقاطع رواها لوقا في فصلين متتاليين (١٠ و ١١) . وهكذا يظهر أن هيجل تبع رواية لوقا لا رواية متى . والاشارات إلى متى لا تسير بعد ذلك بموجب ترتيب الفصول نفسها (٢٢ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) . والأمر نفسه ينطبق على انجيل مرقس . أما بالنسبة إلى انجيل يوحنا فإن اشارات هيجل تتبع ترتيب فصوله نفسها ، باستثناء الإشارة الثانية إلى هذا الانجيل (الفصل الثالث) .

(٦٨) انظر الصفحات (٩٤ - ٩٦) من هذه الترجمة .

(٦٩) انظر الصفحة (٩٤) من هذا الكتاب .

وبشكل عام ، فإن هيجل يستعين بالأناجيل الأخرى ليكمل قصة المسيح ببعض المعطيات التي لا توجد عند لوقا ، أو بالأحرى ليجعل الرواية أكثر دقة وتفصيلاً ، في بعض نواحيها ، مما هي عند هذا الانجيلي .

وهكذا استعان هيجل بانجيل يوحنا من أجل اكمال رواية لوقا فيما يتعلق بيوحنا المعمدان^(٧٠) واستعان أيضاً بانجيل متى من أجل اكمال الرواية الموجزة التي قدمها لوقا عن موت يوحنا المعمدان^(٧١) .

واقتبس هيجل عن يوحنا رواية المشاحنة مع الباعة الذين جعلوا تجارتهم داخل الهيكل وحوار يسوع مع نيقوديموس ومع السامرية^(٧٢) ، لأن لوقا لم يقدم تفاصيل عما جرى بمناسبة زيارة يسوع الأولى إلى **أورشليم** (من بعد أن بدأ حياته العامة كمعلم) . واستعان أيضاً بانجيل متى ، لأن لوقا لا يذكر شيئاً عن محادثة يسوع مع أم يوحنا ويعقوب (حوار جرى في زيارة المسيح الأخيرة إلى **أورشليم**) ، ولا عن القرار الذي اتخذته المجمع الكبير في **أورشليم** بالقبض على يسوع . واستعان كذلك برواية يوحنا ليسرد ما حصل في بيت **عنيا** في المناسبة نفسها^(٧٣) . وفي الصفحة التي تلي ذلك من كتابه اقتبس هيجل مراجع مفصلة من متى . وبعد بضع صفحات أخرى ، ورغم عدم وجود إشارة إلى لوقا ، نجد أن مثل الكرمة مأخوذ من انجيله . ولم

(٧٠) انظر الصفحة (٤٩) من هذا الكتاب .

(٧١) ينقل لوقا خبر موت يوحنا المعمدان بعبارة واحدة أوردها على لسان **هيرودوس** : « أما يوحنا فقد ضربت عنقه » . ولكن متى يروي في الفصل الرابع عشر الظروف التي أدت إلى ضرب عنق يوحنا المعمدان . ولا بدّ من التنويه بأن هيجل لم يضع إشارة إلى مرقس (٦ : ١٤ - ٢٩) ، مع أن الفكرة التي أوردها من خلال عبارة : « حتى ولو طلبت نصف مملكته ، فسيمنحها آياها » غير موجودة إلا عند مرقس .

(٧٢) طرد الباعة من الهيكل والمحادثات مع السامرية ونيقوديموس لم يذكرهما سوى يوحنا .

(٧٣) اكتفى لوقا بذكر توقف يسوع في بيت **عنيا** ، ولكنه لم يذكر محادثته مع **يهودا** في موضوع **مريم** .

يتحدث لوقا عن اليهود اليونانيين الذين طلبوا مباحثة يسوع، ولم يسرد حوار يسوع مع الفريسي الذي أراد معرفة المبدأ الأسمى للخلقية، فأكمل هيجل معطيات لوقا المتعلقة بزيارة يسوع الأخيرة إلى أورشليم بمعطيات استعارها من يوحنا (١٢ : ٢٩) وهي تقابل متى (١٢ : ٣٤ - ٤٠) (٧٤).

* * *

يربط ديلتاي كتاب هيجل هذا بمخططة المتعلق بتأسيس ديانة شعبية، ذلك المخطط الذي أشرت إليه سابقاً (٧٥). فكتاب « حياة يسوع » ذو هدف عملي إذن، ولكن يمكننا القول ان هيجل لم يتابع في « حياة يسوع » سوى هدف نظري. لقد أراد أن « يقوم بالتجربة ». التي تحدث عنها كانط في المقدمة الثانية لكتابه عن الدين.

وكيفما كان الأمر، فما يهم ذكره هنا، هو المكانة الفريدة التي يحتلها هذا الكتاب، ليس بين « دفاتر شباب » هيجل وحسب، بل بين سائر مؤلفاته أيضاً. فمن الواضح أن كتاب « حياة يسوع » هو الوحيد الذي كتبه هيجل أبان خضوعه بطاعة، ودون أي رد فعل شخصي، لتأثير مؤسس

(٧٤) هذه الإشارة غير موجودة عند هيجل.

وحتى نوضح كيف سعى هيجل إلى اتمام رواية لوقا بمعطيات موجودة عند الانجيليين الآخرين، نذكر ما يلي :

بعد سرد حالة الأرملة التي قدمت فلسين إلى الهيكل، يتكلم لوقا على احساس يسوع الداخلي بزوال العبادة اليهودية الخ... وهنا يستعين هيجل بانجيل متى لكي يتحدث عن تعنيف يسوع للفريسيين. وهذا أمر لم يذكره لوقا.

ومن جهة أخرى فإن هيجل نقل العظة على الجبل عن متى، لأن هذا الأخير رواها مفصلة (متى ٦ : ١٧ - متى ٧)، والأمر نفسه بالنسبة إلى آلام المسيح وموته فقد نقلها عن مرقس لأنه فصلها أكثر من لوقا.

وغالباً، فإن الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ليست إلا بهدف بعض المعطيات التفصيلية التي نقلها هيجل من أجل توضيح رواية لوقا.

DILTHEY, op. cit., 21.

(٧٥)

الفلسفة النقدية. وقد نوهت بذلك سابقاً. ففكر هيجل كان ينمو تحت تأثير كانط ويتمرس بالمسائل التي أثارها كانط، ولكن مع تحركه في الوقت نفسه ضد اتجاهات الفلسفة النقدية. في كتاب « حياة يسوع » يبدو هيجل تلميذاً يقلد كانط حرفياً (٧٦).

وبهذه الصفة فإن كتاب هيجل الأول ذو قيمة أكيدة بالنسبة إلى الذين يرغبون في أن يعرفوا عن كثر المراحل التي اجتازها فكره. ولكن « حياة يسوع » مثل سائر كتابات الشباب للفيلسوف الألماني، يقدم أكثر من ذلك. فهو يمنح بعض الفائدة لكل المهتمين بتاريخ المثل، الذي يمكن اعتباره تاريخاً للتأثيرات.

وفي النهاية، إن كتاب « حياة يسوع » ذو قيمة خاصة سيترف بها كل من يقرأه.

إن كتابات هيجل الشاب أهل لأن تُترجم، وخاصة « روح المسيحية ومصيرها ». وأمل أن تشجع هذه المحاولة التي قمت بها سائر العاملين في هذا الحقل.

وفي الختام لا بد من بعض الملاحظات المتعلقة بهذه الترجمة :

من المعلوم أنني حاولت نقل معنى النص الألماني بأقصى أمانة ممكنة. ولكن هيجل كتب « حياة يسوع » لنفسه، لذلك لم يعتن كثيراً بالانشاء. ومن بين عدة تعابير ممكنة لم يختار هيجل أكثرها ابتكاراً. وهذا ما يفسر كوني أنا أيضاً، في موضع الاختيار بين عدة جمل فرنسية موازية، كنت مجبراً على

(٧٦) لقد اشرت سابقاً إلى أن موقف هيجل من كانط لم يستمر إلا لفترة قصيرة. وكتابه « نقد المسيحية الوضعية » الموضوع في السنة نفسها التي وضع فيها كتاب « حياة يسوع » يدل بوضوح على اتجاهه إلى التحرر من هذا الموقف. وهذا ما يرجح الافتراض بأن « حياة يسوع » ليس سوى « تفحص » قام به هيجل بالمعنى الذي تحدث عنه في رسالته إلى شيلينج، والتي استشهدت بها سابقاً.

استعمال الجملة التي يبدو لي أنها الأكثر أمانة في نقل « إهمال » هيجل ، إذا جاز التعبير .

لغة « حياة يسوع » هي في الغالب ذات بناء غير موفق . فارتباط الجمل الثانوية بالجملة الأساسية لم يتم بحسب قواعد النحو . وهكذا فإن منشورات نول قدمت نصاً مثقلاً بالمعترضات التي نادراً ما أحاطت بجمل معترضة بالفعل . مما اضطر السידین نول وروك إلى اضافة بعض الكلمات هنا وهناك من أجل جعل النص مفهوماً .

ولقد قارنت بدقة بين نص منشورات نول ونص منشورات روك الذي يختلف عن الأول إلى حد ما . وأشارت إلى كل الفروقات التي وجدتھا . وكلھا بدا لي أن طبعة روك أكثر توافقاً مع المعنى العام كنت استعملھا ، الأمر الذي دَوَّنته أيضاً في الهامش .

وجزأت النص إلى فقرات قصيرة وعديدة ، تفوق كثيراً ما نجده في طبعتي نول وروك ، وذلك من أجل تحديد المحطات المنطقية لتطور المحادثة ، أو إبراز أهمية بعض الأفكار ، أو اعطاء العديد من الحوارات الشكل الداخلي الذي تتميز به ، وباختصار ، من أجل جعل قراءة « حياة يسوع » أكثر سهولة . هذا بقطع النظر عن أن طبعتي نول وروك تختلفان فيما يتعلق بالتوزيع الطباعي ، فالفقرات في الأولى أطول منها في الثانية .

أما الاشارات إلى الأناجيل فقد وضعها هيجل نفسه .

د . د . روسكا

حياة يسوع(*)

(*) تتألف المخطوطة من تسع عشرة ورقة مرقمة بالأحرف اللاتينية من a إلى t ، وحسب التاريخ الذي وضعه هيجل على الصفحتين الأولى والأخيرة ، فإنها كتبت ما بين ٩ أيار و ٢٤ تموز من العام ١٧٩٥ (ملاحظة ن . نول) .

العقل الخالص المتجاوز كل حد ، هو الألوهة بذاتها : فتصميم العالم قد انتظم أساساً^(١) بحسب هذا العقل . وهو الذي يدرّب الانسان على معرفة مصيره والهدف المطلق لحياته . والحق أن الظلمة غالباً ما اكتنفته ، دون أن تتمكن من اخماده تماماً . فحفظ منه ، حتى في الظلمات ، بصيص من نور .

فمن اليهود قام يوحنا داعياً البشر أن يتنبهوا إلى هذه الكرامة التي تخصهم ، وإلى وجوب التفطيش عنها في ذواتهم وفي أناسهم الحقيقية ، دون اعتبارها آتية من الخارج . فيجب ألا يبحثوا عن تلك الكرامة في أصلهم ، أو في الجري وراء السعادة ، أو في الالتزام بخدمة البشر المرموقين ، بل في تنمية الشعلة الالهية المعطاة لهم والشاهدة بما يفوق الوصف ، على أنهم من الألوهة يتحدرون .

تطور العقل هو النبع الوحيد للحقيقة والسكينة ، النبع الذي لم يدع يوحنا مطلقاً أنه يمتلكه بطريقة حصرية أو كشيء نادر ، بل إن الناس جميعاً قادرون على تفجيرهم في ذواتهم .

||| ولكن فضل المسيح أكبر ، لأنه أصلح مبادئ البشر الفاسدة ،

(١) يوحنا : ١ .

وعرفهم الخلقية الحقيقة وعبادة الله المستتيرة .

ولد يسوع^(٢) في قرية بيت لحم اليهودية . وكان أبواه يوسف ومريم^(٣) . أما يوسف فمتحدر من ذرية داود ، حسب عادة اليهود الذين يعلقون أهمية كبرى على القوائم السلالية .

فلما بلغ يسوع يومه الثامن خُتِنَ حسب الشريعة اليهودية^(٤) . ولا يعرف شيء عن تربيته ، سوى أنه أظهر في وقت مبكر علامات ذكاء نادر ، وأنه أبدى اهتماماً بالمسائل الدينية^(٥) . ومثالاً على ذلك ، فقد نقل عنه أنه في أحد الأيام ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، قد أضاع أهله ، مما جعلهم في حزن كبير . لكنهم وجدوه في هيكل أورشليم ، بين الكهنة الذين أخذوا بمعارفه ونضوجه الفائق نسبة إلى سنه .

أما المرحلة ذات الأهمية القصوى بالنسبة إلى تنشئته ، وهي الفترة الممتدة من حدثاته حتى بلوغه الثلاثين من العمر ، لما أظهر نفسه كرجل كامل وكمعلم ، هذه الفترة التي تسترعي الانتباه الكلي ، فلم يحفظ عنها سوى المعطيات التالية :

لقد عرف يوحنا المشار إليه سابقاً^(٦) ، والذي يُقال له المعمدان ، لأنه دأب على تعميد أولئك الذين سمعوا دعوته إلى أن يصيروا أفضل .

شعر يوحنا أنه مدعو لتنبيه مواطنيه إلى أهداف أسمى من المتعة السهلة ، وإلى طموحات أفضل من بعث المملكة اليهودية ببهائها القديم .

(٢) متى : ١ و ٢ .

(٣) كانوا يسكنون في الناصرة بالجليل ، ولكنهم اضطروا إلى الذهاب إلى بيت لحم ، مسقط رأس يوسف ، بسبب الإحصاء الذي أمر به أوغسطس (حاشية من هيجل) .

(٤) لوقا : ٢ : ٢١ وما يليها .

(٥) لوقا : ٢ : ٤١ .

(٦) لوقا : ٣ : متى ٣ .

وكان يسكن ويعلم في العادة في مقاطعة منعزلة ، أما احتياجاته فكانت بسيطة جداً : فملابسه عبارة عن ثوب من وبر الإبل مع زنار من الجلد ، وقوته من الجراد ، الصالح للأكل في تلك النواحي ، ومن غسل النحل البري .

أما تعليمه فلم يُعرف عنه سوى اكتفاؤه بدعوة البشر إلى تغيير طريقة عيشهم ، وإلى اثبات هذا التغيير بالأعمال . فكان يقول إن اليهود أخطأوا في تصورهم أن تحدرهم من فرع إبراهيم يجعلهم في غنى عن تعليمه من أجل استرضاء الاله . وكان يعتمد أولئك الذين أتوا إليه مظهرين توبتهم عن التصورات التي كانت لديهم فيما سبق من حياتهم . وكانت معموديته عملاً رمزياً يدل ، بمشابهته عمل التنظيف من الأوساخ ، على التخلي عن طريقة العيش الفاسدة .

وجاء يسوع بدوره إلى يوحنا واعتمد منه . ويبدو أن يوحنا لم يجد نفسه مستحقاً لأن يكون عنده تلاميذ مرتبطون به . فقد اكتشف الاستعدادات العظيمة التي سيظهرها يسوع لاحقاً ، فشهد له بأنه لا يحتاج إلى المعمودية ، ونصح الآخرين بأن يتجهوا نحو يسوع ويتعلموا منه . ثم أبدى فرحه^(٧) لما علم أن يسوع قد وجد كثيراً من التلاميذ ، وعمد الكثيرين (لم يكن يسوع هو الذي يعتمد بل أصدقائه) .

وأخيراً سقط يوحنا ضحية الكبرياء الجريح لهيرودوس أمير تلك النواحي ، ولامرأة . ذلك أنه لام علاقة هيرودوس بهيروديا امرأة أخيه ، فألقي في السجن .

لكن هيرودوس لم يجرؤ أن يقضي عليه نهائياً ، لأن الشعب كان يعده نبياً .

وفي أحد الأيام أقام هيرودوس حفلاً كبيراً في ذكرى مولده ، ورقصت

(٧) يوحنا : ٣ : ٢٧ وما يليها .

ابنة هيروديا هذه ببراعة ، فأعجبت هيرودوس حتى أنه أقسم أن يعطيها ما تتمناه ، ولو نصف مملكته . وكانت أمها الجريجة الكبرياء قد اضطرت حتى ذلك الوقت إلى حبس انتقامها عن يوحنا ، فلقنت ابنها أن تطلب موته .

لكن هيرودوس لم يجرؤ على اقناع نفسه ، أو الشهادة أمام مدعويه أن قسمه لا يشمل ارتكاب جريمة ، فقدّم للصبية رأس يوحنا على طبق ، فأعطته لأمها . أما الجسد فدفنه تلاميذه .

ولولا هذه المعطيات عن تلك الفترة من حياة يسوع ، لما كادت تُنقل إلى اللاحقة أية سمات لنمو روحه .

وفي ساعات تأمله في البرية^(٨) ، تساءل يوماً ما إذا كان يرغب في السعي ، عن طريق دراسة الطبيعة أو بالتواطؤ مع الأرواح العلوية ، إلى بلوغ حد تحويل العناصر غير الكريمة إلى عناصر كريمة يستعملها البشر مباشرة - كتحويل الحجارة إلى خبز - أو السعي بشكل عام إلى أن يصبح أكثر استقلالاً بالنسبة إلى الطبيعة (أن يرمي نفسه إلى الأسفل)^(٩) . لكنه أبعد تلك الفكرة ، آخذاً بعين الاعتبار الحدود التي وضعتها الطبيعة لسلطة الانسان عليها ، وأن طموح الانسان إلى مثل هذه السلطة أخط من كرامته كإنسان . لأنه يملك في ذاته قوة أسمى كثيراً من الطبيعة ، وفي تنميتها واصلاحها يكمن الهدف الحقيقي لحياته .

وفي مرة أخرى جال في مخيلته كل ما يعتبره البشر عظيماً وجديراً بأن يكون غاية نشاط الانسان : كأن يكون معلماً وقائداً للملايين ، وأن يجعل نصف العالم يلهج به ، أو يرى ألوف البشر متعلقين بإرادته ونزواته ، أو أن

(٨) لوقا ٤ : متى ٤ .

(٩) يلمح هيجل هنا إلى العرض الذي قدمه الشيطان ليسوع بأن يصعد إلى سطح هيكل اورشليم وأن يرمي نفسه الخ . . . (لوقا ٤ : ٩ - ١٢ : متى ٤ : ٥ - ٧) .

يعيش في الملذات السعيدة الحاصلة من اشباع رغباته^(١٠) - أي كل ما يمكن أن يرضي الخيلاء أو الحواس .

ولكنه لما أغرق في التفكير بحثاً عن الشروط التي تسمح وحدها بحياة ذلك كله ، حتى ولو استعملت جمعاء لخير البشر ، اعني الانحناء تحت نير الشهوات ، الشهوات الذاتية وشهوات الآخرين ونسيان الكرامة العظمى والتخلي عن احترام الذات ، رفض بلا تردد ما ساوره من فكر بتبني تلك الرغبات قاصداً أن يبقى إلى الأبد^(١١) اميناً لما نقش في قلبه بطريقة لا تمحى ، وعازماً على أن يحترم ناموس الخلقية الأزلي وحده ، وأن لا يؤثر على إرادته المقدسة شيء ما خلا هذا الناموس .

ولم يبدأ يسوع تعليمه العلني إلا في الثلاثين من عمره . ويبدو أن تعليمه كان في البداية وقفاً على القلة . ولم يلبث أن انضم « إليه بعض الأصدقاء »^(١٢) ، منهم ميلاً إلى تعليمه ومنهم استجابة لدعوته . وكان يصطحبهم معه دائماً ، ويسعى من خلال قدوته الذاتية وتعليمه إلى اصلاح أنفسهم المحدودة بالتعصب والكبرياء القومية ، وإلى أن يبعث فيهم روحه^(١٣) التي لا تقيم وزناً إلا للفضيلة ، غير المرتبطة بأية قومية خاصة أو مؤسسات وضعية .

أقام يسوع غالباً في الجليل ، وبالتحديد في كفرناحوم . ومن هناك كان ينطلق عادة في زيارات^(١٤) إلى اورشليم لمناسبة الأعياد اليهودية

(١٠) في طبعة نول : (رغباته) ؛ في طبعة روك : (رغبات خالصة) . إلا أن معنى العبارة يرجح أن يكون نول هو الذي نقل الكلمة بدقة .

(١١) تعبير (إلى الأبد) غير موجود في نص روك .

(١٢) (يوحنا ١ : ٣٥ - ٥١) : الكلمات الموجودة بين مزدوجين أضافها نول اكماً لنص هيجل الناقص . أما روك فقد أضاف هنا (تلاميذ كثيرون) .

(١٣) عند روك : « . . . وبعث فيهم روحه . . . » .

(١٤) نول : (رحلة) ؛ روك : (رحلات) .

الكبرى ، وخاصة أبان الفصح السنوي .

وقد لفت إليه الأنظار بالعمل المؤثر الذي قام به في أول زيارة له إلى اورشليم^(١٥) ، بعد أن قدّم نفسه للشعب كمعلم . فقد دخل الهيكل ، حيث يجتمع سائر سكان اليهودية ، مرتفعين فوق الاهتمامات الحياتية الحقة ومقترين من الله بعبادة مشتركة ، فوجد فيه جماعة من صغار الباعة ، الذين يعتمدون على تقوى اليهود ، فيبيعونهم سائر السلع التي يحتاجها اليهودي من أجل قرابينه . وقد جعلوا تجارتهم داخل الهيكل بسبب الحشد القادم من سائر أنحاء اليهودية أبان الأعياد . فامتلاً يسوع بالسخط من هذه الروح المركنتيلية وطرده الباعة من الهيكل .

التقى يسوع بكثير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه . وأدرك تمام الإدراك تمسك اليهود بأوهامهم القومية المتجذرة ، وقلة ادراكهم للأمور السامية ، فلم ينشئ معهم علاقات حميمة ولم يأمل في قناعتهم : أي أنه لم يعتبر قناعتهم ذات مستوى يسمح بأن يبني عليها أموراً عظيمة . وقد ترفع عن تفاهة الظن بأن اذعان الكثير من الناس لتعليمه يشرفه ، وترفع عن ضعف الذين تشدد قناعتهم بشهادة الآخرين .

فإنه لم يكن بحاجة إلى أية موافقة أو أية سلطة ليؤمن بالعقل .

ويبدو أن الانطباع الذي تركه يسوع هنا^(١٦) لم ينجم عنه سوى تأثير بسيط على معلمي الشعب والأخبار ، أو أن هؤلاء كانوا يتظاهرون باحتقاره ، أو بالنظر إليه من عل . إلا أن أحدهم ويدعي نيقوديموس ، أحسن أنه مدفوع إلى الدخول في علاقة أكثر خصوصية مع يسوع ، وأن يتعلم من فمه أين تكمن الجدة والتميز في مذهبه ، وما إذا كان جديراً بالاهتمام . فجاء إليه في ظلمة الليل ، حتى لا يعرض نفسه للحقد أو للسخرية . وقال :

(١٥) يوحنا ٢ : ١٣ وما يليها .

(١٦) يوحنا ٣ .

« لقد جئت بدوري حتى أتعلم منك . فكل ما سمعته عنك يثبت كونك مرسلًا من لدن الله ، وأن الله مقيم فيك ، وأنت أتيت من السماء » .

فأجابه يسوع : « الحق أن من لا يكون أصله في السماء ، ومن لا تقيم فيه قوة إلهية ، ليس من سكان ملكوت الله على الإطلاق » .

فأجاب نيقوديموس : « ولكن كيف يسع الإنسان أن يكفر بنوازه الطبيعية ، وكيف يمكنه أن يكتسب ميولاً سامية ؟ يجب أن يعود إلى بطن أمه ويولد مختلفاً تماماً ، وكأنه كائن من جنس آخر » .

فأجابه يسوع : « الإنسان ، بما هو إنسان ، ليس كائناً شهوانياً وحسب . وطبيعته ليست محصورة في الميول نحو اللذة وحدها . ففيه الروح أيضاً ، وكذلك جذوة من الكائن الإلهي . وما ترثه جميع الكائنات العاقلة هو في متناول الإنسان . فكما أنك تسمع صوت الريح وتتحقق من هزيزها ، ولكنك لا تستطيع شيئاً حيالها ، ولا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب ، فإن تلك القوة الحرة والثابتة تنكشف في ذاتك بطريقة لا تقاوم . أما الطريقة التي ترتبط بها تلك القوة بسائر مشاعر الإنسان المعرضة للتغيير ، وبأية طريقة تؤكد سيادتها على ملكات الحس ، فهذا ما نجهله » .

واعترف نيقوديموس أنه يجهل هذه المفاهيم . فقال يسوع :

« أنت معلم في إسرائيل ، فكيف لا تفهم ما أقول ؟ أما أنا فاعتقادي بها مثل تأكدي مما أراه وأسمعه . ولكن كيف أستطيع أن ألزمك بالايان بشهادتي ، إذا كنت لا تعي الشهادة الداخلية لروحك ، أي ذلك الصوت السماوي ؟ ما من شيء غير هذا الصوت ، ونبعه في السماء ، يمكن أن يطلعك على مقتضى العقل السامي . والحال أن السلام والعظمة الحقيقية وكرامة الإنسان لا يمكن أن تجدها إلا في الايمان بهذا العقل وطاعته .

« ذلك أن الألوهة^(١٧) قد ميزت الإنسان عن سائر الطبيعة ، بأن

(١٧) عند روك : « لأن الله . . . » .

نفحت فيه نفحة من جوهرها فوهبته العقل . ولا يستطيع الانسان أن يحقق مصيره السامي من دون الايمان به . فالعقل لا يدين النوازع الطبيعية ولكنه يوجهها ويشرفها .

« مَنْ لا يطيع العقل فقد أدان نفسه بنفسه ، لأنه أنكر ذلك النور ، ولم يُغذّه في داخله ، وهكذا يشهد بأعماله من أي روح وُلد ؛ إنه يتملّص من بريق العقل الذي يأمر بالخلقية كواجب ، لأن أعماله الشريرة تقاوم ذلك النور الذي سيملاؤه بالخزي واحتقار الذات والندم . وعلى العكس من ذلك ، فالذي يتصرّف باستقامة وصدق يقترب بسرور من محكمة العقل ، دون أن يخشى توبيخاته أو المعرفة الذاتية التي يزوده بها ، ولا يكون بحاجة إلى اخفاء أعماله ، لأنها تشهد على الروح الذي يحييه ، على روح العالم العقلي ، على روح الألوهة » .

ولما أبلغ يسوع أن العدد الكبير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه أخذ يسترعي انتباه الفريسيين ، غادر أورشليم^(١٨) مجدداً وانطلق إلى الجليل . وكانت طريقه تمر عبر مدينة السامرة . وكان قد أرسل تلاميذه إليها ليتناحوا طعاماً ، وفي غيابهم توقف عند بئر يبدو أنها كانت تخص يعقوب ، أحد اجداد الشعب اليهودي . فصادف هناك امرأة سامرية وطلب منها أن تعطيه بعض الماء ليشرب . فتحيّرت المرأة كيف أنه ، وهو اليهودي ، يطلب أن يشرب من سامرية ، ذلك أن الشعبين كانا يتبادلان ضغينة دينية وقومية ، منعتهما من إقامة أية علاقة بينهما . فأجابها يسوع :

« لو كنت تعرفين مبادئ ، لما حكمت عليّ بحسب القاعدة الشائعة بين اليهود ، ولما كابدت في ذاتك أي تردد في أن تطلبيني ، ولكنت فتحت أمامك نبأ آخر للماء الحي الذي يطفىء عطشك إذا غرفت منه ، فهو الماء الذي ينبجس منه نهر يقود إلى الحياة الأبدية » .

فأجابت السامرية : « أرى أنك رجل حكيم . وإني أتجاسر فأطلب منك أن تطلعني على أهم خلاف بين ديننا ودينك . لقد أقام آباؤنا عبادتهم على جبل جرّزيم ، أما أنتم فتؤكدون أن أورشليم هي المكان الوحيد الذي يكرّم فيه العليّ » .

فأجابها يسوع : « صدقيني أيتها المرأة ، سيأتي زمن لن تقيموا فيه أية عبادة ، لا في جبل جرّزيم ولا في أورشليم . سيأتي زمن لن يؤمن فيه أحد أن عبادة الله تقتصر على أعمال محددة سلفاً ، أو أنها وقف على مكان معين . سيأتي زمن - بل أتى الآن - يكرّم فيه عبادة الله الحقيقيون الأب الكلي بالروح الحقيقية للدين ، لأنه يريد مثل هؤلاء العباد الذين يهيمن على أرواحهم العقل الأوحده وكماله : أي الناموس الخلقى . وعلى هذا الناموس وحده يجب أن تؤسس عبادة الله ! » .

وكان للقصة التي روتها المرأة لمواطنيها عن يسوع وحوارها معه ، أثر كبير على رأيهم فيه ، فجاء كثير من السامريين ليسمعوا تعليمه .

وفيما يسوع يحادثهم عاد تلاميذه وقدموا له طعاماً .

فأجابهم : « دعوا هذا ، فأنا لا أفكر في غذاء الجسد . مهمتي هي صنع مشيئة الله وتحقيق اصلاح البشر . أفكاركم متجهة نحو الطعام ، ونحو الحصاد القريب . ولكن افتحوا أعينكم جيداً^(١٩) ، وانظروا حصاد الجنس البشري الذي نضج ! عجلوا في تنمية هذا البذار في الحقول التي لم تزرعوها ! إن بذرة الخير التي وضعتها الطبيعة في قلب الانسان أخذت تنمو بذاتها ، هنا وهناك ، أما عملكم فهو العناية بهذه الأزهار والانتظار ، ثم مباشرة العمل الذي بدأته الطبيعة وتعجيل ايناع البذار » .

وأقام يسوع يومين عند السامريين نزولاً عند طلبهم ، فأتاح لهم

(١٩) عند نول : (افتحوا) ؛ عند روك : (فرحوا) .

(١٨) يوحنا ٤ .

الفرصة ليتحققوا بخبرتهم الخاصة من التأثير العميق الذي تركه فيهم حديث المرأة عنه .

ثم مضى بعد انقضاء اليومين إلى الجليل^(٢٠) . وفي طريقه ، كان ينصح الناس بأن يغيروا طريقة عيشهم وأن يصبحوا أخياراً^(٢١) . وسعى إلى إيقاظهم من غفلتهم ومن آمالهم العقيمة والخاملة في أن ماسياً سيظهر قريباً فيسترجع عظمة الديانة اليهودية والدولة .

وكان يقول لهم : « باشروا اصلاح أنفسكم بأيديكم ولا تتكلوا على أحد سواكم ! ضعوا أمامكم هدفاً أسمى من أن تكونوا مجدداً كما كان اليهود الأقدمون ! كونوا أخياراً ! فهذا ما يقربكم من ملكوت الله » .

هكذا علم يسوع في كل مكان^(٢٢) ، في كفرناحوم الواقعة على ضفاف بحيرة طبريا ، وفي الأماكن العامة ، وفي معابد اليهود . وبينما هو يباحث مواطنيه أبناء الناصرة ، القرية التي ولد فيها ، في موضوع الكتب المقدسة ، قيل عنه : « أوليس هذا ابن يوسف الذي ولد ونشأ بيننا ؟ » إن رأي اليهود المسبق بأن المخلص الذي ينتظرونه يجب أن يكون من أصل رفيع ، وأن يظهر بمجد ، كان لا يقاوم . وفي النهاية طرده مواطنوه من المدينة ، فتذكر المثل القائل : « لا كرامة لنبي في وطنه »^(٢٣) .

وهنا دعا^(٢٤) بطرس واندراوس وكذلك يعقوب ويوحنا إلى أن يتبعوه . فوجدهم منصرفين إلى الصيد وهو مهنتهم ، فقال لبطرس :

« دع السمك ، فسأجعلك صياداً للبشر ! » .

(٢٠) يوحنا ٤ : ٤٣ ؛ متى ٤ : ١٢ وما يليها ؛ لوقا ٤ : ١٤ .

(٢١) متى ٤ : ١٧ .

(٢٢) لوقا ٤ : ١٦ - ٣٢ .

(٢٣) الترجمة الحرفية : « أقل مكان يكرم فيه النبي هو وطنه » .

(٢٤) متى ٤ : ١٨ - ٢٢ .

وأخذ عدد الذين يتبعونه يزداد^(٢٥) ، ورافقه عدد كبير من سكان المدن والقرى . وأمام هذا الجمهور الغفير صعد إلى الجبل ، وألقى ، في هذه المرحلة من حياته العظة التالية :

« طوبى^(٢٦) للمستضعفين والفقراء ، فإن لهم ملكوت السموات .

« طوبى للمحزونين ، فإنهم يعزّون .

« طوبى للودعاء ، فإنهم ينعمون بالسلام .

« طوبى للراغبين في البر بقوة ، فإن رغبتهم تتحقق .

« طوبى للشفوقين ، فإنهم يرحمون .

« طوبى لانقياء القلوب ، فإنهم يقتربون من القدوس .

« طوبى لمحيي السلام ، فإنهم أبناء الله يدعون^(٢٧) .

« طوبى للمضطهدين من أجل البر ، والمكابدين في سبيله الشتائم والافتراءات .

« افرحوا وتهللوا فأنتم من سكان ملكوت السموات !

« أما عنكم يا أصدقائي فأريد أن أقول : أنتم ملح الأرض ، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملح ؟ إنه يضيع شيئاً فشيئاً في المواد العادية الأخرى . إذا ماتت قوة الخير فيكم ، فإن أعمالكم ستختفي مع سائر الجهود التافهة وبؤس البشر .

« أثبتوا أنكم نور العالم ، ولتكن أعمالكم الصالحة نوراً للبشر ،

(٢٥) متى ٤ : ٢٥ .

(٢٦) متى ٥ : ٢٥ .

(٢٧) عند نول : (السلام) ؛ عند روك : (الأطفال) . فنص روك يترجم إذاً كما يلي :

« طوبى لمحيي الأطفال ، فإنهم أبناء الله يدعون » .

فتلهب ما فيهم من خير ، فيتعلموا كيف يرفعون أبصارهم نحو الأهداف السامية ونحو الآب الذي في السماء !

« لا تظنوا أنني جئت بالصدفة لأكرز ببطلان الشرائع ! ما جئت لأبطل الخاصية الالزامية لهذه الشرائع ، بل لأجعلها كاملة ، فأبعث الروح في هذا الهيكل المائت . قد تزول الأرض والسماء ، ولكن وصايا الناموس الخلقي وواجب الخضوع له لا يزولان ! مَنْ يحل نفسه أو سواه من واجب اطاعة تلك الوصايا لا يستحق اسم مواطن ملكوت الله . أما الذي يتممها في نفسه ، ويعلم الآخرين احترامها ، فذاك يكون معتبراً في ملكوت السموات .

« ما أضيفه من أجل انجاز مذهب الشرائع بكامله هو الشرط الأساسي : لا تكتفوا بمراعاة نص الشرائع ، الذي يمكن أن يشكل وحده مادة الأحكام البشرية - كما يفعل الفريسيون ومثقفو شعبكم - بل تصرفوا بحسب روح الشريعة ، باحترام الواجب .

« سأوضح لكم ذلك بأمثلة من ناموسكم . فاحدى الوصايا القديمة تقول : « لا تقتل » ، فإن مَنْ يقتل يستوجب المقاضاة » . أما أنا فأقول لكم : ليس موت الآخرين بالتحديد هو الذي يسبب مسؤولية الجريمة . صحيح أن الذي يسيء التصرف نحو أخيه لا يمكن أن تعاقبه أية محكمة بشرية . ولكنه ، حسب روح الشريعة ، مسؤول مثل المجرم .

« لقد أمرتكم الشريعة منذ أجيال طويلة أن تقدموا الذبائح في بعض المناسبات . فإذا اقتربت من المذبح وتذكرتم أنكم قد اسأتم إلى رجل فالتموه ، فاتركوا تقدمتكم أمام المذبح واذهبوا إلى أخيكم طالبين أن يمد لكم يد المصالحة ، ثم ارجعوا إلى المذبح بعد أن تصيروا مقبولين من الله .

« تقول إحدى وصاياكم أيضاً : « لا تزن » . أما أنا فأقول لكم إن الخطيئة لا تكمن في الفعل الجسدي وحده ، ولكن الشهوة عموماً تظهر أن

القلب قد تدنس . مهما كان النازع طبيعياً ومستحباً ، فقاوموه بشدة . وازدروه قبل أن يجعلكم تنجرفون بعيداً عن حدود البر ، وقبل أن يجعلكم تنقضون مبادئكم مبدأً اثر مبدأ ، وتركونها تفسد . افعلوا هذا ولو كنتم بارضاء نوازعكم لا تنقضون حرفاً من الناموس .

« ثمة شريعة قديمة تقول : « لا تحلف بالزور » . ولكن بشكل عام ، إذا كنتم تحترمون أنفسكم ، فإن كل تأكيد وكل وعد تقطعون بكلمة « نعم » أو « لا » وحدها ، يجب أن يكون صحيحاً ومقدساً وغير منتقض ، مثل اليمين التي تحلفونها باسم الإله . لأنكم يجب ألا تقولوا « نعم » أو « لا » إلا إذا كنتم على قناعة بأنها تصلح دستوراً أزلياً للعمل .

« وثمة شريعة مدنية تقول : « العين بالعين والسن بالسن » . ولكن إياكم أن تجعلوا من هذه الصيغة القانونية مقياساً لحياتكم الخاصة ، إذا تعلق الأمر بالرد على شتيمة أو باظهار مودة . لا تبالوا بامتلاك الثروات ، واتركوا التوق إلى الانتقام ، واهملوا مصالحكم الخاصة ، حتى المشروعة منها ، من أجل العواطف النبيلة كالرأفة والصلاح .

« لا شك أنه قد فرض عليكم أن تحبوا أصدقاءكم وأمتكم . ولكن إلى جانب هذا فقد سُمح لكم أن تكرهوا أعداءكم والغرباء . أما أنا فأقول لكم : احترموا الانسانية ، حتى في أعدائكم . وإذا لم يسعكم أن تحبهم ، فتمنوا الخير ، على الأقل ، لهؤلاء الذين يلعنونكم ، واصنعوا البر للذين يكرهونكم . تشفعوا من أجل الذين يغتابونكم والساعين إلى إحزانكم .

« وهكذا تصيرون أبناء حقيقيين للآب الذي في السماء ومشابهين لمن لا حدٌ لصلاحه ، حتى أنه يطلع شمسهِ على الأشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجار . فإن احببتم مَنْ يحبكم ، وصنعتكم الخير للمحسنين إليكم ، وإذا اقترضتم على أمل أن يعود قرضكم كما هو^(٢٨) ، فأية قيمة لعملكم ؟ إنها

(٢٨) لوقا ٦ : ٣٥ .

أحاسيس طبيعية ، ولا يتنصل منها حتى الأشرار . فبهذا لا تكونون قد فعلتم شيئاً للواجب . فلتكن القداسة هدفكم كما أن الإله قدوس .

« الصدقة والرحمة^(٢٩) فضيلتان جديرتان بالاحترام ، ولكن إذا لم تتم ممارستها كالوصايا السابقة بحسب روح الفضيلة ، بل من أجل نيل الخطوة في أعين الناس ، فإنها تفقدان كل قيمة . فإذا أردتم أن تتصدقوا ، فلا يُنفخ أمامكم في البوق ، كما يفعل المراؤون في الشوارع وفوق المنابر أو على صفحات الصحف^(٣٠) . أما أنتم فتصدقوا في الخفية ، حتى لا تعلم شمالكم ما تفعله يمينكم .

« إن مكافأتكم ، إذا كنتم بحاجة إلى مكافأة بغية تشجيعكم ، هي الفكر المطمئن إلى أنكم قد تصرفتم حسناً ، والاعتقاد أن تأثير عملكم - الذي لا يعرف كثير من الناس مَنْ قام به ، والمتمثل بأمر صغير ، كالمساعدة التي يحملونها إلى مصاب والعزاء الذي تقدمونه إلى بائس - الاعتقاد أن تأثير عملكم غني بالنتائج النافعة من أجل الخلود .

« وإذا صليتم فلا تفعلوا ذلك على طريقة المرائين الذين يركعون في المعابد ، ويضمون أيديهم في الشوارع ، أو الذين يزعمون جيرانهم بترائيلهم ، حتى يراهم الناس . الحق أقول لكم إن صلاتهم لا تحمل أي ثمر . أما أنتم فلتكن صلاتكم في الخلاء أو في غرفتكم ، لأن الصلاة يجب أن تكون تعالي النفس فوق الأهداف الحقيرة التي يطلبها البشر ، وفوق الشهوات التي تتدافعهم . يجب أن ترفعكم الصلاة ، بالفكر ، إلى الله القدوس الذي يذكركم بالشرعية المطبوعة في قلوبكم ، وأن تملاكم باحترام تلك الشريعة ، فلا تؤثر فيكم النوازع على اختلافها .

« لا تصوغوا جوهر صلاتكم بكلمات وجمل كثيرة ، كما يفعل

المستسلمون للخرافات الذين يظنون أن الكلمات الكثيرة تنيلهم حظوة عند الله ، أو تؤثر عليه وعلى تصميم حكمته الأزلية . لا تشبهوا هؤلاء ! فأبوكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه . الحاجات الطبيعية والرغبات التي توحى بها النوازع لا يمكن أن تكون مادة لصلاتكم . فكيف يسعكم أن تعرفوا ما إذا كان ارضاء هذه النوازع يدخل في التصميم الخلقى الذي وضعه الله القدوس ؟

« أما إذا صليتم فليحرككم فكر الله حتى تصمموا في حضرته على تكريس حياتكم للفضيلة . وربما يمكن تحديد روح الصلاة بالكلمات التالية :

« يا أبا البشر الذي تخضع له كل السموات ، إنك القدوس الوحيد . فلتكن أنت الصورة الماثلة في روحنا ، حتى نسعى إلى الاقتراب منها ! فليأت ملكوتك في اليوم الذي يكون جميع المتحلين بالعقل قد جعلوا من شريعته وحدها قاعدة أعمالهم !

« وبهذه الفكرة تُخضع شيئاً فشيئاً كل نوازع الطبيعة وصراخها ! كيف يمكننا أن ننصب أنفسنا قضية مترمتين أو متعطشين للثأر من إخواننا ونحن نحس بنقصنا بالنسبة إلى مشيئتك المقدسة ؟ نريد ألا نعمل إلا على أنفسنا حتى نجعل قلوبنا أفضل ، ونشرف دوافع أعمالنا ، ونظهر عواطفنا شيئاً فشيئاً ، حتى نصبح أكثر فأكثر مشابهي لك ، أنت الوحيد صاحب القداسة والمجد اللامتناهين .

« أنتم تمتلكون مقياساً لقياس تقدمكم في الكمال الخلقى : إنه مدى تقدمكم في المحبة الأخوية وفي تصميمكم على التسامح . لا تكتزوا على هذه الأرض كنوزاً لا تستطيعون الادعاء أنها ثرواتكم الخاصة . فالذهب والفضة والجمال أشياء معرضة للتلف أو لتغير الظروف ، حتى إلى الصدا وإلى أن تبيدها الحشرات ، أو لخطر السرقة . فلا تكن مثل هذه الكنوز هي التي تملأ نفوسكم .

(٢٩) متى ٦ .

(٣٠) من المؤكد أن هيجل نسي أن يسوع هو الذي يتكلم .

« اكنزوا في داخلكم كنزاً لا يفنى ، أي غني في الخلقية . فهذا هو الكنز الوحيد الذي تستطيعون القول إنه خاصتكم ، بكل معنى الكلمة ، لأنه جزء من « ذاتكم » الحميمة . ولا يقوى عليه شيء ، لا متطلبات الطبيعة ، ولا إرادة البشر الشريرة ولا حتى الموت نفسه !

« وكما أن العين السليمة تُستخدم سراجاً للجسد ، فتقوده في كل تحركاته . فإذا أُصِيب بالخلل يفقد الجسم مهارته في كل ما يقوم به ، فكذلك عندما يخبو نور النفس ، أي العقل ، فمن أين تستطيع الميول والتزعات أن تأخذ وجهتها الصحيحة ؟

« وكما أن أحداً لا يستطيع أن يعمل لسيدٍ بالحماس نفسه ، فإن خدمة الله والعقل لا يمكن أن تتوافق مع خدمة الحواس . لأن كلاهما يتنافى مع الآخر . أو أنه سينشأ قلب خطير وعاجز بينهما . لذا أتوجه إليكم بهذه النصيحة :

« تحرروا من الحاجات المستمرة المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس ، تلك الحاجات التي تشكل المحور الكامل لجهود معظم البشر ، والتي تبدو ، بسبب الاهتمام الذي يعلقه هؤلاء عليها ، وكأنها هي التي تحدد مصيرهم ، أو أنها الغاية النهائية لوجودهم .

« أفلا توجد في النفس البشرية حاجة أسمى من الغذاء واللباس ؟ انظروا إذن إلى طيور السماء ! إنها حرة من كل حاجة ، فلا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء ، ولكن أبا الطبيعة يتدبر عذاءها . أوليس هدفكم أسمى من هدفها ؟ وهل ألزمتكم الطبيعة أن تستخدموا قواكم النبيلة من أجل اشباع حاجات معدتكم وحسب ؟ إنكم تبدلون جهداً كبيراً في تزيين الوجه الذي منحكم آياه الطبيعة وتجميله . فهل تقدر خيلاؤكم أن تزيد مقدار اصبع إلى طول قامتكم ، رغم العناية والمثابرة اللتين تبذلونهما من أجلها . أو انظروا إلى زهور الحقل التي تزهر اليوم بروعة ، ثم تتحول في الغد إلى علف . هل استطاع سليمان ، في كل بهائه ، أن يحاكي جمال

الطبيعة الحر ؟ أبعثوا قليلاً الحاجات الحفيرة كاللباس والقوت ! وليكن الهدف الأسمى لقواكم ملكوت الله والخلقية ؛ فبهذا وحده تستحقون أن تكونوا من سكانه . أما الباقي فيعطى لكم علاوة على ذلك .

« لا تكونوا قساة^(٣١) في أحكامكم على الآخرين . لأنه سيكال لكم بالكيال الذي به تكيلون ، ويمكن ألا يكون دائماً لمصلحتكم . لماذا تنظرون بعين الرضى إلى الشوكة الصغيرة في عين سواكم ، ولا تكتشفون الخشبة التي في أعينكم ؟ ولماذا تقولون للآخر : « توقف أيها الصديق ودعني أنزع الشوكة من عينك ! » ؟ أيها المرائي ، انزع الخشبة من عينك أولاً ، وبعد ذلك التفت إلى الشوكة ! اعمل على اصلاح نفسك قبل أن ترغب في اصلاح الآخرين ! كيف يستطيع الأعمى أن يقود أعمى آخر على الطريق ؟ أفلا يقعان كلاهما في الحفرة ؟ وهل يستطيع المعلم أن يجعل تلميذه ماهراً إذا لم يكن هو كذلك^(٣٢) ؟ إذا أردتم أن تجعلوا الآخرين أخصيائاً ، فلا تتوجهوا إلى أي كان وبطريقة متهورة ودون تمييز . لا تعطوا الكلاب ما هو مقدس (الخواتم) ولا تطرحوا لؤلؤكم أمام الخنازير ، لأنها ستكتفي بأن تدوسها ثم ترميكم أرضاً .

« اقتربوا من البشر واطلبوا منهم ، وسيعطونكم في الغالب . فتشوا عن الناحية التي يستطيعون بها الاقتراب منهم ، فإذا وجدتموها ، اقرعوا بلطف وستجدون المدخل .

« تصرفوا حسب مبدأ^(٣٣) يقضي بأن تستطيعوا التمني لو يطبق كقاعدة عامة بين البشر كما يطبق عليكم . فذلك هي القاعدة الأساسية للأخلاق ، ومحتوى كل التشريعات والكتب المقدسة عند كافة الشعوب . ادخلوا من

(٣١) متى ٧ .

(٣٢) لوقا ٦ : ٤٠ .

(٣٣) القاعدة العامة للحكمة هي : « افعلوا للناس ما تريدون أن يفعلوه لكم » - قاعدة الخلقية . (جملة شطبها هيجل . وهي غير موجودة عند روك) .

باب الحقوق هذا إلى هيكल الفضيلة ! ولا ريب أن هذا الباب ضيق ،
والطريق المؤدي إليه مليء بالأخطار ومرافقيكم سيكونون قليلين .

« مسكن الشر والهلاك ذو باب واسع وطريق سوي ، وكثيرون هم
الذين يرغبون فيه . احذروا في طريقكم من المعلمين الكذبة ، فإنهم يقتربون
منكم بمظهر الحملان وفي داخلهم شهوات الذئاب الفتاكة . ولكن لديكم
علامة أكيدة لكشف مراءاتهم : أحكموا عليهم بحسب أعمالهم ! لأنه لا
يجتنى من الشوك عنب ولا من العليق تين ! كل شجرة طيبة تحمل ثماراً
طيبة ، وكل شجرة رديئة ثماراً رديئة . وليس للشجرة الطيبة أن تحمل ثماراً
رديئة ولا للشجرة الرديئة أن تحمل ثماراً طيبة (٣٤) .

« إذن فمن ثمارهم تعرفونهم . فمن غنى القلب الخير يتدفق الخير ،
ومن غزارة القلب الشرير يتدفق الشر (٣٥) . لا تدعوا كلمات التقى والورع
تستهويكم . فليس من يتضرع إلى الله ويوجه إليه الصلوات ويقدم إليه
التقدمات ، يكون عضواً في ملكوته ، بل الذي يعمل بمشيئته التي يهتدي
إليها الانسان بواسطة ناموس عقله .

« كثيرون هم الذين سيقفون في اليوم الأخير أمام قاضي العالم ،
ويقولون : « ربنا ، ربنا ، أولسنا باسمك قد صنعنا المعجزات ، وطردنا
الأرواح الشريرة ، وقمنا بالأمر العظيم ؟ أولم نمجدك بهذه الأعمال ،
ونشكرك عليها كأنها أعمالك الخاصة ؟ وسيجيبهم حينئذ :

« وما أهمية معجزاتكم (٣٦) أو نبوءاتكم أو أعمالكم العظيمة ! وهل
يتعلق الأمر بهذا ؟ الله لن يقر بأنكم من خاصته . لستم من ساكني ملكوته .

(٣٤) لوقا ٦ : ٤٣ .

(٣٥) لوقا ٦ : ٤٥ . عند نول (يتدفق) ؛ عند روك : (يعظم أو يتنفخ) .

(٣٦) نول : (معجزاتكم) ؛ روك : (المعجزات وحدها) . أعتقد أن نول على حق ،
لأنه عبّر بأمانة عن فكرة هيجل ، وهي التالية : « ليست للمعجزات أية أهمية .
وحسب نص روك يجب القول : « المعجزات وحدها ليست لها قيمة » .

أنتم صانعو معجزات وأنبياء وخالقو أعمال عظيمة . أنتم تصنعون الشر ،
والخلقية هي المقياس الوحيد لما هو مقبول عند الله .

« فمثل من يسمع هذه المبادئ فيتبناها كمثل رجل عاقل بنى بيته على
الصخر . فلما أتت العاصفة ، وسالت عليه الأودية بصخب ، وعصفت
الرياح وثارَت على ذلك البيت لم يسقط ، لأن أساسه على الصخر . ومثل من
يسمع هذا التعليم ولا يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فلما
أتت السيول واندفعت نحوه اسقطته ، وكان سقوطه عظيماً ، لأن أساسه
ضعيف ! » .

تركت هذه الأحاديث تأثيراً كبيراً على سامعي يسوع ، لأنه كلمهم بقوة
ونبرة ، وكانت المواضيع التي تطرق إليها مما يسترعي أقصى اهتمام البشرية .

ومن ذلك الحين (٣٧) ازداد عدد الذين يتجمعون بغية الاستماع إلى
يسوع . ولكن انتباه الفريسيين والأخبار اليهود ازداد أيضاً . وكان يهرع في
الغالب إلى الخلاء ، هرباً من صخب تلك الجموع وملاحقة الفريسيين
والكهنة .

وأثناء اقامته في الجليل مر يوماً من أمام بيت الجباية فرأى فيه عشاراً
اسمه متى (٣٨) ، فدعاه إلى أن يكون أحد أتباعه ، فقبل ذلك ثم شرفه فيما
بعد بصداقته الحميمة ، فجلس إلى مائدته وكان معظم الجالس من الموظفين
أمثاله . وكانت لفظة « عشار » مساوية للفظه « خاطيء » عند اليهود ، فأظهر
الفريسيون لأصدقاء يسوع دهشتهم لمخالطته العشارين .

وسمعهم يسوع فقال لهم :

« ليس الأصحاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى وحدهم . تأملوا

(٣٧) متى ٨ ؛ مرقس ٢ : ١٣ .

(٣٨) من المحتمل أن هذه القصة نفسها وردت عند لوقا (٧ : ٢٥) ومرقس (٢ : ١٤)
سوى أن الرجل فيها يحمل اسم لاوي (ملاحظة لهيجل) .

أيضاً وأنتم سائرون في معنى ما جاء في أحد كتبكم المقدسة : « ليست الذبائح هي المقبولة عندي ، إنما الاستقامة » .

وكان بعض تلاميذ يوحنا المعمدان مندهشين مثل الفريسيين ، إذ أنهم كانوا يصومون كثيراً ، بعكس أصدقاء يسوع الذين لا يصومون . فأجاب يسوع عن تساؤلهم :

« أي سبب حقيقي لديهم حتى يكونوا حزاني ؟ ستأتي أيام يرفع فيها معلمهم ، كما رفع معلمكم ، وحينئذ يمكنهم أن يصوموا ! وعلى كل حال ، لماذا تريدون أن أطلب منهم مشقة كهذه في طريقة حياتهم ؟ إن هذا الأمر لا يتفق مع عاداتهم التي ساروا بموجبها حتى الآن ، ولا مع مبادئ التي لا تقيم وزناً للمشقة الخارجية ولا تسمح لي بأن أفرض على الآخرين مراعاة لنص الممارسات » .

ولما اقترب عيد الفصح^(٣٩) ذهب يسوع إلى اورشليم مرة ثانية . وأثناء إقامته هناك ، حنق اليهود عليه كثيراً ، لأنه أسدى خدمة إلى أحد المرضى المحتاجين يوم السبت .

فقد رأوا في عمله تدنيساً لهذا اليوم المقدس وقرينة على عدم اعتباره هذه الوصية التي أمر بها الله نفسه وصية ملزمة ، وعلى انتحال حق لا يعود إلا إلى الله وحده ، وعلى اعتباره سلطته مساوية لسلطة الإله . فأجابهم يسوع :

« إذا كنتم تعتبرون مجموع شرائع كنيستكم ووصاياكم الوضعية بمثابة الناموس الأسمى المعطى للإنسان ، فإنكم بذلك تنتكرون لكرامة الإنسان ولقدرته على استخراج مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة مشيئتها . ومن لا يحترم هذه القدرة التي فيه ، لا يمجّد الإله . ما يستطيع الإنسان أن يسميه « أناء » ، هو ما يرتفع به فوق القبر والفساد ، ومن يمنح نفسه المكافأة

(٣٩) يوحنا ٥ .

المستحقة يكون مسؤولاً عن محاكمة نفسه . هذه الأنا تعتلن مثل العقل الذي لا تتوقف شرائعه على أي شيء ، والذي لا تستطيع سلطة على الأرض أو في السماء أن تدل على مقياس آخر للحكم عليه . ما أعلمه ، لا أعلنه على أنه فكرتي أو خاصتي ، ولا ألزم أي إنسان بقبوله معتمداً على سلطتي ، لأنني لا أسعى إلى تمجيد نفسي . إنني أخضع تعليمي لنقد العقل الكلي ، وهو الذي يحمل كل إنسان على أن يؤمن به أو لا يؤمن .

« ولكن كيف يمكنكم أن تقبلوا العقل بمثابة مقياس أسمى للمعرفة والايمان ، إذا كنتم لا تنصتون لصوت الألوهة ! أنتم لم تستمعوا يوماً إلى صدى هذا الصوت في قلبكم ، ولم تغيروا انتباهاً إلى من يطلق هذا الصوت . أنتم تعتقدون أن معرفة مشيئة الله وقف عليكم ، وتعملون من التمييز الذي يضعكم فوق سائر أبناء البشر مادة طمعكم . أنتم تبتهلون إلى موسى ، ودائماً إلى موسى ، فتؤسسون إيمانكم على سلطة غريبة لرجل مفرد . أجل ! اقرأوا كتبكم المقدسة بعناية ، ولكن يجب أن تحملوا معكم إليها روح الحقيقة والفضيلة . وستجدون فيها الشهادة على هذه الروح ، وفي الوقت نفسه الشكوى عليكم : أي أن كبرياءكم السعيدة في أفقها المحدود لا تسمح لكم أن ترفعوا أنظاركم إلى أمر يعلو على علمكم الذي تعوزه الروح ، وعلى ممارساتكم الآلية » .

وتتيح بعض الأسباب للفريسيين فرصة اتهام يسوع وتلاميذه مرة أخرى بأنهم يبدسون السبت^(٤٠) . ففي أحد الأيام كان يتنزه مع أصدقائه في حقل مزروع . فأحسوا بالجوع ، وراحوا يقلعون السنابل ، أو ما كان مزروعاً هناك - ويرجح أنه الفاصوليا الشرقية . ويمضغون الحبوب (وهو الأمر الوحيد المسموح به) . ورأى الفريسيون ذلك فلفتوا انتباه يسوع إلى أن تلاميذه يقومون بأمر يُحرّم القيام به يوم السبت . ولكن المسيح أجابهم :

(٤٠) متى ١٢ : ١ - ٨ ؛ لوقا ٦ : ١ - ٥ .

« ألا تذكرون في تاريخ شعبكم أن داود حين جاع أكل الخبز المكرس للهيكل ووزع أيضاً على أصحابه ؟ ألا يتمم الأحبار في الهيكل أعمالاً مختلفة ، حتى في السبت نفسه ؟ هل الهيكل هو الذي يجعل هذه الأعمال مقدسة ؟ أما أنا فأقول لكم : الانسان أعظم من الهيكل . الانسان ، لا أي مكان محدد ، هو الذي يقدس الأعمال أو يجعلها نجسة . فالسبت قد جعل من أجل الانسان وليس الانسان من أجل السبت ، لأن الانسان سيأخذ السبت أيضاً . لو فكرتم فيما قلته سابقاً للبعض منكم حول معنى هذه الكلمات : « الله يطلب المحبة لا الذبائح » ، لما أنبتم هؤلاء الأبرياء بخشونة » .

ودخل يسوع المعبد في سبت آخر ، وكان ثمة رجل يده مصابة ، فأراد اليهود أن يجدوا سبباً لاتهام يسوع ، فسألوه أن يقول لهم ما إذا كانت تجوز معالجته في ذلك اليوم . فأجاب يسوع :

« مَنْ منكم إذا كان له خروف ووقع في حفرة ، لا يخرج به يوم السبت ؟ أفلا يساوي الانسان أكثر من خروف ؟ لذلك يحل فعل الخير يوم السبت » .

لقد أدركنا بأمثلة عديدة سوء نية الفريسيين نحو يسوع . وبالفعل فقد اتفقوا من ذلك الحين مع جماعة هيروودوس^(٤١) على ازاحة يسوع من طريقهم ، إذا استطاعوا ذلك .

وهكذا ذهب يسوع إلى الجليل ، حيث أخفى مكان اقامته بسبب تلك الملاحقات . وشدد كثيراً على سامعيه الموجودين عنده ألا ييوحوا بمكان اقامته .

واختار يسوع اثني عشر من سامعيه^(٤٢) ، حتى يكون إلى جانبه دائماً بعض الأشخاص الذين يستطيع أن ينفخ فيهم روحه الخالصة : لأنه أدرك

(٤١) روك : (اتفقوا مع هيروودوس) .

(٤٢) لوقا ٦ : ١٢ - ١٣ .

جيداً أن حياة شخص واحد وقواه لا تكفي للنهوض بأمة كاملة إلى الخلقية . وكرمهم بتعليم خاص ، حتى يجعلهم قادرين على مساعدته في نشر مذهبه التعليمي . أما أسماؤهم فهي ، انظر مرقس ٣ : ١٦ - ١٩ .

ولما أرسل يوحنا المعمدان بعض أصدقائه إلى يسوع^(٤٣) ليسألوه عن هدف تعليمه ، أخذ يعنف الفريسيين لأنهم تلقوا ببرود دعوة يوحنا لهم إلى أن يكونوا أخياراً . وقال :

« أي فضول دفعكم للذهاب إلى الصحراء ؟ من المؤكد أنها ليست الرغبة في أن تصبحوا أخياراً . أخرجتم لتروا أحداً من الذين يشبهونكم ، أو رجلاً بلا ميزة يغير مبادئه بحسب مصلحته^(٤٤) ؟ أقصبة تهزها الريح من جهة إلى أخرى ؟ أم رجلاً بشباب فاخرة يعيش عيشة باذخة ؟ إنكم لن تصادفوا مثل هؤلاء الرجال في الصحراء بل في قصور الملوك . أو ربما ذهبتم لرؤية نبي أو صانع معجزات ؟ أن يوحنا أعظم من كل ذلك .

« لقد لاقى يوحنا ترحيباً في الطبقة الدنيا من الشعب ، ولكنه لم يستطع أن يؤثر على الفريسيين أو مفسري الشريعة التقليديين ، ولا أن يجعل قلوبهم سهلة البلوغ إلى الخير . فبماذا أشبه هذا النوع من البشر ؟ أشبهون أولاداً يلعبون في الساحة العامة ، ويصيح بعضهم ببعض : « زمربنا لكم فلم ترقصوا ! ندبنا لكم فلم تبكوا ! » جاءكم يوحنا ، فلم يأكل خبزاً ولا شرب خمراً ، فقلتم : « إن مزاجاً سيئاً يعذبه » . وجثتكم أنا آكلًا وشاربًا كسائر البشر ، فقلتم أيضاً : « هذا الرجل أكول وسكير ويعاشر أحقر البشر » . ولكن الحكمة والفضيلة ستجدان دائماً عباداً يشتون قيمتهما » .

ورغم هذا التصنيف دعاه أحد الفريسيين ، واسمه سمعان ، إلى تناول الطعام . وعلمت امرأة أن يسوع مدعو عند سمعان ، ويبدو أنها

(٤٣) لوقا ٧ : ١٨ .

(٤٤) يختلف نص نول قليلاً عن نص روك ، إلا أنه يحافظ على المعنى نفسه .

تأثرت كثيراً بتعليمه ، فجاءت إلى الغرفة ومعها قارورة من الطيب النفيس ، اقتربت من يسوع ، وراحت تبكي متأثرة برؤيتها رجلاً فاضلاً ، وباحساسها بحياتها المليئة بالأخطاء ، ثم ارتمت على قدميه ، وهي تشعر أنها بمثل هذا تسهم في توبتها ورجوعها إلى طريق الفضيلة ، فقبلت قدميه وبللتها بدموعها ومسحتها بشعرها ودهنتها بالزيت النفيس . ولكن الطيبة التي تقبل بها يسوع هذه المظاهر ، الدالة على أن قلباً مليئاً بالتوبة والاعتراف قد وجد عزاءً ، هذه الطيبة التي لم ترفض هذا الاحساس جرحت رهافة الفريسيين . وظهر على سحتهم مدى تحيرهم من كون يسوع قد تلقى بحب عظيم امرأة ذات سمعة سيئة . وأدرك يسوع ذلك فقال لسمعان :

« عندي ما أقصه عليك » .

فقال سمعان : « تكلم » .

فروى يسوع : « كان لدائن مدينان ، له على أحدهما خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون . ولم يكن بوسعهما دفع دينهما ، فأعفاهما منه . فأيهما يكون أكثر حباً له ؟ » .

فأجابه سمعان : « مَنْ أعطاه أكثر ، بالتأكيد » .

فقال يسوع : « بلا شك » . ثم أشار إلى المرأة وتابع : انظر هنا . إني دخلت لبيتك فلم تقدم إليّ ماء لأغسل قدمي . أمّا هي فقد بللتها بدموعها ومسحتها بشعرها . أنت لم تقبلني ، أمّا هي فلم تعتبر أن تقبلها قدميّ يحطّ من كرامتها . أنت لم تدهن رأسي بزيت ، أمّا هي فبالطيب النفيس دهنت قدميّ . إن امرأة قادرة على حب كهذا ، واعتراف كهذا ، ستغفر لها خطاياها مهما كانت كثيرة . لأن البرودة في العواطف النبيلة على هذا النحو تشهد أن لا رجوع إلى الفضيلة المترفعة عن الأغراض » . ثم قال يسوع للمرأة : إنها لسعادة الهية أن أشهد انتصار إيمانك في ذاتك ، وثقتك في أنك ما زلت قادرة على فعل الخير ، وعلى شجاعتك ! فعيشي بسلام ! » .

وتابع يسوع طريقه عبر المدن والقرى وهو يعظ في كل مكان (٤٥) . وكان يصحبه رسله الاثنا عشر ونساء بعضهن غنيات كنّ ينفقن من أموالهن على اطعام الجماعة . وفي أحد الأيام احتشد جمع كبير فضرب لهم هذا المثل : (المثل قصة خيالية تقدّم مذهباً تعليمياً بطريقة محسوسة ، وهو يختلف عن الحكاية والأسطورة من حيث الشخصيات الفاعلة ، فهي في المثل بشر وفي الحكاية حيوانات وفي الأسطورة جنّ أو كائنات رمزية) :

« خرج الزارع ليذر بذره . فوقع قسم منه على الطريق فداسته الأقدام وأكلته الطيور . ووقع بعضه الآخر على الصخر ، حيث التربة قليلة ، فنبت ولكنه ييس بسبب الحرارة ولأن جذوره غير عميقة . ومنه ما وقع بين الشوك ، فنا الشوك معه وخنقه . ومنه ما وقع على الأرض الجيدة فأعطى ثلاثين وستين وحتى مئة ضعف » .

ولما سأله تلاميذه لماذا يعرض تعليمه للشعب من خلال الأمثال ، أجابهم :

« إن عندكم معنى الأفكار السامية المتعلقة بملكوت الله ، وبالخلق التي ينشأ منها حق الانسان في أن يكون مواطناً فيه . ولكن الخبرة علّمتني أن هذا المعنى هو مجرد كلمات فارغة بالنسبة إلى اليهود . وعلى الرغم من ذلك فهم يرغبون في أن يسمعوا مني شيئاً ، ولكن أحكامهم المسبقة متجذرة بشكل لا يسمح للحقيقة العارية بالدخول إلى قلوبهم . وحده الذي يحوز استعدادات لتقبل شيء أسمى في داخله ، يستطيع أن ينتفع من تعليمي . أمّا الشخص الذي ينعدم فيه هذا الحس بما هو أسمى ، فإنه لن يعرف على الإطلاق كيف يستخدم المعرفة القليلة التي يمكن أن يحوزها بالصدفة . إن لهم عيوناً ولا يرون شيئاً ، ولهم آذان ولا يسمعون شيئاً . ولهذا فاني لا أكلمهم إلا بالأمثال ، وهاكم شرحه :

(٤٥) لوقا ٨ .

« الزرع المبدور هو معرفة الناموس الخلقي . وَمَنْ سنحت له الفرصة لهذه المعرفة ، ولم يفهمها جيداً ، فأَيُّ مصلٍّ يستطيع أن ينزع بسهولة المقدار القليل من الخير الذي زرع في قلبه بالصدفة . وهذا هو معنى الزرع الذي سقط في الطريق .

« أمّا ما سقط في الأرض الصخرية ، فهو المعرفة المقبولة بفرح حقيقي ، ولكن من دون جذور مغروسة في العمق ، لذلك تستسلم سريعاً للظروف ، وتبيد إذا هددت الشدائد والآلام مصداقيتها .

« والزرع الساقط في الشوك ، يشبه أولئك الذين يتحدثون عن الفضيلة فعلاً ، ولكن الفضيلة تبقى في أنفسهم ولا تعطي ثمراً ، لأن أنفسهم مخنوقة باهتمامات الحياة وباغواء الغنى المخادع .

« أمّا الزرع في الأرض الجيدة ، فهو صوت الفضيلة المسموع ، والذي يحمل من الثمار حتى ثلاثين وستين ومئة ضعف » .

ثم ضرب لهم يسوع أمثلة أخرى (٤٦) :

« يمكن أن نشبه مملكة الخير بحقل زرعه صاحبه زرعاً جيداً . وبينما رجاله انيام جاء عدوه (٤٧) فزرع بين القمح زواً ثم مضى خفية . فلما بدأ النبت يُخرج سنابله ظهر الزواً أيضاً . فسأل الخدم سيدهم :

« لقد زرعت زرعاً خالصاً في حقلك ، فمن أين جاء الزواً ؟ » .

« فأجابهم السيد : « بعض الأعداء فعل ذلك بالتأكيد » .

« فقال الخدم : « أتريد أن نذهب فنستأصله ؟ » .

« فأجاب السيد (٤٨) ، وهو أكثر منهم حكمة : « لا ، لأنكم

(٤٦) متى ١٣ .

(٤٧) نول : (عدوه) . روك : (صديقه) .

(٤٨) نول : (رد) ؛ روك : (أجاب) .

ستتزعون سنابل الحنطة مع الزواً . فدعوها ينبتان معاً إلى يوم الحصاد . وحينذاك أقول للحصادين أن يفصلوا الزواً ويتلفوه ، وأن يجمعوا الحنطة الخالصة » .

ولما أصبح يسوع وحيداً مع تلاميذه ، طلبوا تفسير المثل ، فأجابهم :

« زارع الزرع الجيد يمثل البشر الأخيار الذين يلفتون نظر الناس إلى الفضيلة بأقوالهم وقودتهم . والحقل هو العالم . والبذور الجيدة هي البشر النخبة ، أمّا الزواً فهم الفاسدون . والعدو الذي زرع الزواً يمثل الضالين والمضلّين ، وزمن الحصاد هو الأبدية ، وجزاء الخير والشر . وبانتظار ذلك ، فإن الفضيلة والشر يكونان في علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، فيمتنع الآن استئصال الأخير دون التسبب في إيذاء الأولى » .

وبمنظار آخر شبه يسوع مملكة الخير بحبة الخردل ، التي رغم صغرها تصبح غرسة عظيمة ، حتى أن الطيور تستطيع أن تصنع فيها اعشاشها . وشبهها أيضاً بالقليل من الخمير الذي يوزع على ثلاثة مكابيل من الدقيق ، فيخمر الأجزاء كلها . إن مملكة الخير مثل البذور التي تزرع في الأرض ولا تحتاج إلى أية عناية ، فإنها تنبت وتنمو دون أن يعرف أحد كيف يتم ذلك ، لأن الأرض بطبيعتها تملك قوة خاصة ، بواسطتها تنبت البذور وترتفع ساقها وتحمل سنابل ممتلئة (٤٩) .

وشبه مملكة الخير أيضاً بكنز دفين في حقل ، وجده رجل ، فأخفى أمره . ثم ذهب فرحاً وباع كل ما يملكه ليشتري هذا الحقل . وشبهها أيضاً بتاجر كان يطلب اللؤلؤ الجميل ، فلما وجد لؤلؤة ثمينة باع كل شيء ليقتنيها . أو بصياد وجد في شبكته سمكاً من كافة الأنواع ، فذهب إلى الشاطئ وفصل الجيد فوضعه في أوعيته ، وطرح الرديء . وهكذا في يوم الحصاد العظيم ، فإن الأبرار يميزون عن الأشرار . أمّا الأبرار فبالكفاة التي

(٤٩) مرقس ٤ : ٢٦ .

سيجدونها في السلام الذي تعطيه الفضيلة ، وأما الأشرار فبذمهم واتهامهم لأنفسهم وخزيهم^(٥٠) .

وحينئذ^(٥١) جاء أقارب يسوع ليروه ، فلم يستطيعوا الوصول لكثرة الجمع . فأبلغ يسوع بذلك ، فأجاب :

« إن أُمِّي واخوتي هم الذين يسمعون صوت الإله ويطيعونه » .

ولما جاءه خبر موت يوحنا المعمدان ، ركب سفينة على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية^(٥٢) ، ولكنه لم يلبث سوى فترة قصيرة بين الجراسيين ، ثم عاد إلى الجليل من جديد^(٥٣) .

وفي الوقت عينه أرسل يسوع رسله الاثني عشر لمواجهة اليهود المتعصبين ، المزهوين بنسبهم وأصلهم - وهي أشياء ذات قيمة كبيرة في نظرهم - لذلك وضعوها فوق القيمة المفردة ، تلك القيمة التي تضيفها الخلقية على الانسان^(٥٤) . وقال لهم :

« لستم في حاجة إلى القيام باستعدادات كثيرة من أجل رحلتكم ، أو إلى أن تلتفتوا الأبصار بشيء من البذخ . اقيموا زمناً حيث يستمعون إليكم . ولا تفرضوا أنفسكم على مَنْ يرحّب بكم ، بل اتركوا ذلك المكان فوراً وتابعوا طريقكم ! » .

ويبدو أنهم لبثوا فترة بسيطة غائبين ثم عادوا سريعاً إلى يسوع .

وفي أحد الأيام وجد يسوع نفسه بين جماعة من الفريسيين ومعلمي

الشرعية الآتين من أورشليم^(٥٥) . فدهش هؤلاء لأن تلاميذ يسوع جلسوا إلى المائدة بأيدي نجسة ، أي غير مغسولة . لأن اليهود لا يأكلون إلا بعد أن يغتسلوا جيداً ، جرياً على أمرٍ يستند إلى التقليد ، وعليهم أيضاً أن يغسلوا بالماء كل الكؤوس وسائر الأواني ، والكراسي والمقاعد قبل كل وجبة . فقال الفريسيون ليسوع :

« لماذا لا يجري تلاميذك على أوامر آبائنا ، فيجلسون إلى المائدة بأيدي غير مغسولة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« ما قيل في أحد كتبكم المقدسة ينطبق عليكم تماماً : « هذا الشعب يكرّمني بالشفاه ، أما قلبه فبعيد عني ، وعبادته باطلة ، لأنها ليست سوى مراعاة للقواعد التي لا مرجع لها » . أنتم لا تكرّمون الوصية الإلهية ، ولكنكم تتمسكون حرفياً بالعادات البشرية ، كتبريك الأكواب والكراسي وسواها بالماء . إنكم مصييون بهذا . فأنتم تنقضون وصية إلهية لكي تبقوا مخلصين لأنظمة كنيستكم . هذا هو الناموس : « أكرّم أباك وأمك . ومنْ تلفظ بكلمة قاسية نحو أبيه أو أمه يجب أن يُقتل » . ولكنكم أنشأتم ناموساً آخر ؛ فإذا قال أحدكم لأبيه أو أمه في صورة الغضب : « إن ما أستطيع أن أقدمه لكم من خدمات ومال سأقدمه « إلى الهيكل » ، تعتبرون أنه بهذا العمل قد أخذ نذراً بالآل يقدم لهم أية منفعة ، وتتهمونه بارتكاب الخطيئة إذا قدّم لأمه أو أبيه أية خدمة . وهكذا تنقضون وصية إلهية بوصايا من عندكم . ولديكم الكثير من الأنظمة على هذا النمط » .

ثم خاطب يسوع الجمع المحيط به :

« اصغوا إليّ وافهموا ما أقول : ما من مادة طبيعية ، وما من شيء يتناوله الانسان من الخارج يمكن أن ينجسه ، ولكن ما يفعله الانسان ، وما

(٥٥) مرقس ٧ .

(٥٠) عند روك ، تشكل هذه الجملة خلاصة مثل الزرع الجيد والزؤان .

(٥١) لوقا ٨ : ١٩ .

(٥٢) لوقا ٨ : ٢٢ ؛ مرقس ١٤ : ١٣ .

(٥٣) لوقا ٨ : ٣٧ .

(٥٤) لوقا ٩ .

يخرج من فمه ، هو الذي يدلّ ما إذا كانت نفسه طاهرة أو نجسة » .

وأراد تلاميذ يسوع لفت انتباهه إلى كون الفريسيين قد غضبوا لهذا الكلام . فقال :

« دعوهم يحنقون ، أن مثل هذه الأعشاب الصادرة عن الانسان يجب أن تُستأصل . إنهم عميان يقودون عمياناً . وأريد أن أنتزع من الشعب هؤلاء القادة العميان . وإلاّ فإنه سيسقط في الحفرة مع أولئك الذين وثق بهم » .

ولما تفرقت الجموع وعاد يسوع إلى المنزل ، طلب منه أصدقاؤه أن يفسّر لهم ما قاله للشعب حول الأشياء الطاهرة والنجسة . فأجابهم :

« حتى أنتم لم تتوصلوا بعد إلى فهم هذا الأمر ؟ ألا تفهمون أن ما يدخل فم الانسان يتحول في معدته وأمعائه ثم يُطرح خارجاً ؟ وأن الأشياء التي تخرج من القلب ، كالكلمات والأفعال ، تأتي من نفس الانسان ، وهي التي يمكن أن تكون طاهرة أو قذرة ، مقدسة أو نجسة . فمن النفس تولد الأفكار الشريرة والقتل والزنى والسرقة وشهادة الزور والافتراء والحسد والكبرياء وحياة الفجور والبخل . وهذه الشرور هي التي تنجس الانسان ، وليس كونه قد نسي بالصدفة أن يبارك يديه بالماء قبل أن يجلس لتناول الطعام » .

واقرب عيد المظال^(٥٦) عند اليهود ، فألحّ عليه اقرباؤه أن يرافقهم إلى اورشليم حتى تكون حلقة الذين يعرفونه ويستمعون إليه أوسع مما هي في المدن والقرى الجليلية . فأجابهم يسوع أن الوقت ليس مناسباً لذلك ، ودعاهم إلى الذهاب ، لأن البشر لم يبغضوهم مثله ، فهو قد شهد امام اليهود أن سلوكهم فاسد وأعمالهم شريرة . ولكن بعد بضعة أيام من مغادرة أقارب يسوع الجليل ، ذهب هو أيضاً إلى اورشليم ، إنمّا في الخفية . وهناك

(٥٦) يوحنا ٧ .

أخذ الناس يسألون عنه ، لأنهم كانوا ينتظرونه كيهودي . وكان حكم الشعب عليه ، وخاصة الجليليون ، مختلفاً ، فقال بعضهم انه رجل صالح وآخرون رأوا فيه مضللاً . ولكن الجليليين لم يتحدثوا عنه جهاراً خوفاً من اليهود .

وفي انتصاف العيد ذهب يسوع إلى الهيكل وأخذ يعلم . فتعجب اليهود ، لأنهم يعلمون أنه غير متعلّم . فأجابهم :

« ليس مذهبي من اختلاق البشر ، حتى يحتاج المرء إلى تعلمه بالجهد من الآخرين . فمن ينوي اتباع ناموس الخلقية الأصيل ، دون أحكام مسبقة ، يمكنه أن يتحقق للحال ما إذا كان مذهبي من اختلاقي . مَنْ يسعى إلى مجده الخاص ، فمن المؤكد أنه سيقم وزناً كبيراً للنظريات والوصايا البشرية . أمّا الذي يسعى حقاً إلى مجد الله فيكون من الصراحة بما يكفي لأن يطرح الاختلافات التي أضافها البشر إلى الناموس الخلقي ، أو التي أحلّوها محله ! أنا أعلم أنكم تكرهونني وتسعون إلى قتلي لأنني أعلنت أنه يمكن شفاء مريض يوم السبت . لقد سمح لكم موسى أن تحتنوا الانسان يوم السبت . فكم هو أعظم أن نعيد له صحته » .

وكان أناس من اورشليم يسمعون ، فبدأ من أحاديثهم أنهم سمعوا كلاماً عن عزم المجمع الكبير على التخلّص منه . ودهشوا لتكلمه جهاراً وبحرية دون أن يمدّ أحد يده إليه ، وإن كانوا عازمين على ذلك . فالماسياً الذي ينتظره اليهود ليجدد عظمة عبادتهم الالهية ويُعيد استقلال مملكتهم لا يمكن بالتأكيد أن يكون يسوع ، لأنهم يعرفون جيداً من أين هو ، أما ماسياً فيجب أن يظهر فجأة حسب النبوءات .

وهكذا ، فإن ما واجه يسوع دائماً هو الأحكام المسبقة لليهود ، فإنهم قلّموا طمحوهم إلى معلم يسعى إلى جعل سلوكهم أفضل وإلى تحريرهم من أحكامهم المسبقة المناقضة للخلقية . لقد أرادوا ماسياً محرّره من الخضوع للرومان ، فلم يجدوه في يسوع .

ونقل خدم أعضاء المجمع الأعلى إلى هؤلاء أن يسوع في الهيكل .
فأنبؤهم لأنهم لم يلقوا القبض عليه . فاعتذروا بقولهم إنهم لم يسمعوا إنساناً
يتكلم مثله ، فلم يتجاسروا على الإمساك به . فقال لهم الفريسيون : « كيف
هذا ؟ يبدو أنه ضللكم أنتم أيضاً ! هل رأيتم فريسياً أو أحد أعضاء المجمع
يكثر له ؟ إنه لا يستطيع أن يضل سوى أولئك الرعاع الذين يجهلون
شريعتنا » .

فذكرهم نيقوديموس ، وهو الذي جاء قبلاً إلى يسوع في الليل ، أنه
بحسب الشريعة لا يمكن إدانة أحد قبل سماعه ، ودون أخذ معلومات دقيقة
عن أعماله ، فاتهموه بأنه هو الآخر تابع للجليلي - مع أنه لا يمكن أن يكون
أي نبي من أصل جليلي .

ويبدو أنهم لم يأخذوا قراراً قطعياً بموضوع يسوع ، فرفض المجمع من
جديد .

وأما يسوع ليلته في جبل الزيتون (٥٧) ، وربما في بيت عنيا الواقعة
على سفح ذلك الجبل ، حيث يوجد بعض معارفه . ثم عاد إلى المدينة
والهيكل . وبينما هو يعلم فيه ، أتاه بعض معلمي الشريعة والفريسيين بامرأة
أخذت بجرمة الزنى . فأقاموها في الوسط ليحاكموها . وشرحوا حالها ليسوع
قائلين إن شريعة موسى أمرت برجمها ، وسألوه رأيه . وأدرك يسوع نيتهم في
نصب فخ له . فتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً . وانحنى يخط باصبعه على الرمل
بعض الصور . فلما ألحوا في معرفة رأيه ، نهض وقال لهم : « مَنْ يعلم منكم
أنه بلا خطيئة ، فليرمها بالحجر الأول ! » ثم أخذ يخط رسوماً في الرمل من
جديد . فلما سمع معلمو الشريعة جواب يسوع انسحبوا بسرعة واحداً بعد
الآخر ، فبقي يسوع وحده مع المرأة . ثم نهض فلم يجد أحداً سواها ،
فسألها : « أين هم متهموك ، أفلم يدرك أحد منهم ؟ » .

(٥٧) يوحنا ٨ .

فقلت : « أبداً » .

فأجاب يسوع : « وأنا أيضاً لا أدينك . الوداع ، ولا تعودني إلى
الخطيئة مستقبلاً » .

وفي مرة أخرى (٥٨) ، كان يسوع يحدث الشعب في الهيكل ، فسأله
الفريسيون عن البرهان الذي يستطيع أن يقدمه إلى نفسه وإلى الآخرين حتى
يؤكد صحة مذهبه التعليمي . فقد كانوا ينعمون بالسعادة لامتلاكهم دستوراً
وشرائع مؤكدة باعلانات رسمية من الإله . فأجابهم يسوع (٥٩) :

« أتعتقدون أن الإله قد رمى الجنس البشري في العالم ، وعهد به إلى
الطبيعة ، دون أي ناموس ، ودون أي شعور بالهدف الأسمى لوجوده ، ومن
غير أن يكون بإمكانه أن يجد في نفسه الطريقة التي يرضي بها الإله (٦٠) ؟ أو
ربما تعتقدون أن معرفة الشرائع الأخلاقية مسألة حظ ، وأنها قد أعطيت لكم
وحدكم ، في هذه البقعة من الأرض ، دون أن يدري أحد لماذا ، فحصرت
فيكم من بين كل أمم الأرض ؟ ضيق فكركم الأناني هو الذي يوهمكم
بذلك . أما أنا فلم أصغر إلا إلى الصوت الصادق لقلبي وشعوري . ومن
يستمع له بعناية تنيره الحقيقة الكامنة فيه . انصتوا إلى هذا الصوت ، فهذا
هو الأمر الوحيد الذي أطلبه من تلاميذي . هذا الناموس الداخلي هو ناموس
الحرية ، الذي يقدم الإنسان ذاته له ، ويخضع له بحرية حرة . إنه أزلي ،
وعليه يستند الاحساس بالخلود . ومن أجل الواجب الذي يحتم علي أن أنقل
هذا الناموس إلى ضمير البشر ، أنا على وشك ترك الحياة ، مثل الراعي
الأمين الذي يموت فداءً عن قطيعه . يمكنكم أن تأخذوا حياتي لا أن
تنتزعوها ، لأنني أنا نفسي أضحي بها طوعاً . أنتم عبيد لأنكم واقعون تحت

(٥٨) يوحنا ٨ : ١٢ - ٢٠ .

(٥٩) يوحنا ٨ : ٢١ - ٣٠ .

(٦٠) قال غوته : « كل إنسان يستطيع سماعه . . . إذا كان نبع الحياة يجري صافياً في
باطنه » (ملاحظة لهيجل) .

نير الناموس الذي فُرض عليكم من الخارج ، ولهذا السبب هو عاجز عن انتزاعكم من خدمة نوازكم باحترام أنفسكم » .

إن الترحيب الذي لقيه يسوع في اورشليم^(٦١) ، وتصرف اليهود العدواني ، وخاصة الكهنة الذين اتخذوا قراراً بأن يجرموا كل مَنْ يعتبر يسوع ماسياً المنتظر ، وأن يقصوه عن الاشتراك في العبادة الالهية والتعليم الرسمي^(٦٢) - وهو الأمر الذي جعل يسوع يتجنب تقديم نفسه للشعب علناً^(٦٣) - هذا التصرف العدواني أعطاه احساساً مسبقاً بالعنف (وربما الموت) الذي سيعانيه فيما بعد ، فنقل هذه الأفكار إلى تلاميذه .

فقال بطرس : « نرجو ألا يحصل شيء من هذا ، لا سمح الله » .

فأجاب يسوع : « كيف تقول هذا ، هل أنت ضعيف حتى تعذر عليك التهيؤ لذلك ، أو تظن أنني غير مستعد له ؟ أنت ما زلت تفكر بحواسك ! وتجهل أيضاً القدرة الإلهية التي تفرض احترام الواجب ، وتتغلب ، بحب الواجب ، على مقتضيات النوازع ، وحتى على محبة الحياة ! » .

ثم توجه إلى التلاميذ الآخرين قائلاً :

« مَنْ يرغب في اطاعة الفضيلة يجب أن يعرف كيف يلزم نفسه بالفقر . وَمَنْ يرغب في أن يبقى مخلصاً للفضيلة بطريقة راسخة ، يجب أن يكون مستعداً لتكريس كل شيء ، حتى حياته ، من أجلها ! مَنْ يحب حياته الخاصة يقصد نفسه . وَمَنْ يحتقر حياته ، يبقى مخلصاً لأنه الفضلي ويخلصها من متطلبات الطبيعة . أية قيمة تبقى للانسان ، إذا ربح العالم كله وأذلّ أنه من أجل ذلك ؟ وأي ثمن يمكن أن يكون معادلاً للفضيلة المفقودة ؟ سيأتي

(٦١) لوقا ٩ : ٢١ وما يليها .

(٦٢) يوحنا ٩ : ٢٢ .

(٦٣) يختلف نص نول عن نص روك تماماً . فعند نول : (تجنب يسوع تقديم ...) .

أما عند روك : (قدّم يسوع نفسه ...) .

يوم يشع فيه المضطهد بمجده ، والعقل المستقر في حقوقه يحدد لكل انسان مكافأة أعماله » .

وبعد اقامة طالت أكثر من المعتاد (لأن يسوع بقي في اورشليم من عيد المظال حتى عيد التجديد في كانون الأول)^(٦٤) رجع لآخر مرة إلى مكان اقامته المعتاد في الجليل^(٦٥) . ويبدو أنه لم يعلم في هذه الفترة أمام الجموع كما في السابق^(٦٦) ، بل انصرف أساساً إلى تثقيف تلاميذه .

وفي كفرناحوم^(٦٧) طُلبت منه الضريبة السنوية المخصصة للهيكل . فقال لبطرس وهما عائدان إلى البيت : « ماذا تقول يا بطرس ، أياخذ ملوك الأرض الضريبة من أبنائهم أم من الآخرين ؟ » .

فأجاب بطرس : « من الآخرين » .

فقال يسوع : « إذا فالبنون معفون . ونحن الذين نعبد الله حسب الروح الحقيقية ، يجب ألا نساهم مطلقاً في نفقات الهيكل الذي لا نحتاجه من أجل عبادة الله ، لأننا نسعى إلى عبادته بالسلوك الحسن ، وعلى أية حال ، ادفع لهم عنا ، كي لا يستأؤوا ، وحتى لا نبرهن عن احتقار لما يعتبرونه مقدساً » .

وقام جدال بين تلاميذ يسوع حول مكانة كل منهم في ملكوت الله يوم تجليه^(٦٨) . لأنهم لبثوا يقرنونه بأفكار من عالم الحواس ، ولم يتحرروا بعد من التصور اليهودي لمملكة أرضية ، ولم يدركوا بطريقة خالصة أن ملكوت الله هو مملكة الخير ، حيث لا سلطان لغير العقل والناموس . واستمع يسوع إلى هذا الجدل وهو حزين . ثم دعا طفلاً وقال لتلاميذه :

(٦٤) يوحنا ١٠ : ٢٢ .

(٦٥) متى ١٧ : ٢٢ .

(٦٦) مرقس ٩ : ٣٠ .

(٦٧) متى ١٧ : ٢٤ - ٢٧ .

(٦٨) لوقا ٩ : ٤٦ - ٥٠ .

« إذا لم تتغيروا وتعودوا إلى براءة هذا الطفل وصفائه وبساطته ، فأنتم لستم من مواطني ملكوت الله . مَنْ يَخْطَأُ إِلَى الْآخَرِينَ^(٦٩) ، حتى إلى طفل كهذا ، ويظن أن بإمكانه أن يسمح لنفسه بأي أمر ضدهم ، ويعتقد أن لديه سلطة ليعاملهم بلا مبالاة ، هو مذنب . أما الذي يجرح قداسة البراءة ويسيء إلى طهارتها ، فمن الأفضل له أن يُعلّق في رقبتة حجر رحى ويُرمى في البحر ! ليست الاساءات إلى النفس الطاهرة قليلة في هذا العالم ، ولكن ويلٌ للإنسان الذي يتسبب في مثل تلك المعثرة . انتبهوا جيداً كي لا تحتقروا أحداً ، وخاصة بساطة القلب : فهي الزهرة الأكثر رقة ونبلاً في الإنسانية ، إنها أصفى صورة للألوهة . وهي وحدها التي تمنح المكانة الرفيعة ، بل أرفع مكانة . هذه البساطة تستحق أن يُضخّى في سبيلها بكل ما تقوم به أعزّ ميولكم ، وبكل احساس بالخيلاء والطمع ، أو الحشمة الكاذبة ، وبكل الاعتبارات النفعية أو المغرية .

« الزهو بارتفاعكم فوق الآخرين لن يستولي عليكم إذا نزعتم إلى البساطة ، وإذا علمتم كيف تقدّرون الكرامة التي من أجلها وُجد كل إنسان ، والتي هي في استطاع كل إنسان . وكذلك إذا فكرتم أخيراً أنه مثلما لا يمكن أن تكون الأشجار ذات مظهر واحد^(٧٠) ، فإن مَنْ ليس ضدكم ، حتى مَنْ تحتاجه الإنسانية حقاً ، هو معكم ، رغم كونه صاحب طبائع وعادات مختلفة - فهذه أمور غير مهمة .

« أمّا إذا كنتم تعتقدون حقاً أن ثمة أشياء مفقودة ، فلا تظهروا احتقاركم ، بل ابذلوا جهداً لاصلاحها ، ولإعادة البشر إلى طريق الفضيلة . أفلا تعتقدون أن الراعي الذي يضلّ خروف واحد من خرافه المئة يقطع الجبال من أجل استعادة الخروف الضال ؟ وإذا وجده ، أفلا يشعر بفرح

(٦٩) نول : (بحس) . روك : (بخطأ) . ولكن معنى الجملة يدل على أن روك هو المصيب .

(٧٠) انظر ليسينج ، ناثان الحكيم ٤ ، ٤ (ملاحظة لهيجل) .

أعظم مما يحسه لأن التسعة والتسعين لم تضلّ ؟

« ولكن إذا أساء إليك أحد ، فاسع إلى مصالحته ، دعه يفسّر سلوكه واتفق معه . فإذا استمع إليك ، فإنها تكون غلطتك إذا لم تستطع الاتفاق معه . وإذا لم يستمع إليك فاصطحب معك شخصين لازالة الخلاف . فإذا لم ينجح ذلك اعرض دعواك على عدد من الوسطاء . فإذا لم يمدّ يده من أجل مصالحتك ، وإذا كنت من جهتك قد فعلت كل ذلك ، تجنبه ولا تعد إلى مخالطته . إن الإهانات والمظالم التي يسامح البشر بعضهم بعضاً عنها ويستدركونها ، هي أيضاً مغفورة في السماء . وعندما تتوحدون بروح المحبة والمصالحة ، يهيمن عليكم الروح الذي أريد أن أحييه فيكم » .

وهنا سأل بطرس^(٧١) : « كم مرة يجب أن أسامح الإنسان الذي يسيء إليّ ويتسبب في إيذائي ؟ حتى سبع مرات ربما ؟ » .

فأجابه يسوع : « أعتقد أن ذلك كثير ؟ إني أقول لك : سبعون مرة سبع مرات . فاسمع هذه القصة :

« أراد أمير أن يحاسب خدمه . وكان على أحدهم عشرة آلاف وزنة . ولم يكن هذا المبلغ بحوزته . فأمره أن يبيع كل ما يملك ، وأن يبيع حتى زوجته وأولاده كعبيد ، ليسدّد دينه . فانطرح الخادم على قدميه ، وناشده الصبر وتأجيل الموعد ، لأنه يريد أن يدفع كل شيء . فرق سيده لحاله وأعفاه من دينه كله .

« ولما خرج ذلك الخادم من عند سيده لقي خادماً من رفاقه ، وكان له عليه مئة دينار (مبلغ يقل عن المبلغ السابق بنسبة واحد إلى أكثر من مليون) . فعنفه وأجبره بقسوة على تأدية الدين . ولم ينصت إليه لما جثا على ركبتيه ورجاه أن يمهلّه ، بل وضعه في السجن إلى أن يقضي الدين . فاستاء الخدم الآخرون مما حصل أمامهم ، وأخبروا الأمير .

(٧١) متى ١٨ : ٢١ - ٣٥ .

« فدعا الخادم القاسي وقال له :

« أيها الانسان القاسي القلب ، لقد أعفيتك من دينك الكبير لأنك سألتني . أفما كان يجب عليك أنت أيضاً أن تشفق على الآخر كما رحمتك أنا ؟ خذوه ! » .

« ثم أمر الأمير بوضعه في السجن إلى أن يؤتي ما عليه .

« ترون في هذا المثل أن روح المصالحة هي الدليل على نقاوة الشعور التي لا تقبل الألوهة المقدسة سواها ، لأن لها كمال القيمة ، أما الأعمال فغالباً ما تكون غير كاملة : أنتم ترون أن هذه الروح هي الشرط الوحيد الذي يمكنكم من أن تأملوا في أن تعفيكم العدالة الأزلية مما تستحقونه من عقاب ، جزاء سيرتكم السابقة ؛ والشرط لتصيروا بشراً آخرين بتغيير رُوحكم » .

وقرر يسوع أن يعود إلى اورشليم مجدداً ، عن طريق السامرة (٧٢) . فأرسل بعضاً من رفاقه ليتقدموه ويعدّوا الاحتياجات في إحدى القرى . ولما علم السامريون أنه قرر الذهاب إلى اورشليم من أجل الفصح ، لم يرغبوا في استضافته ، ورفضوا حتى مروره في قريتهم . فخطر لبعض رفاق يسوع الطلب إلى السماء أن ترسل صواعقها على تلك القرية . فالتفت يسوع نحوهم ساخطاً وقال :

« أهذا هو الروح الذي يحرككم ، روح الانتقام ؟ حتى إذا تطوعت قوى الطبيعة لخدمته ، استعملها ليقترض (٧٣) من سوء اللقاء بالتدمير ! فليكن هدفكم بناء مملكة الخير لا التدمير » . ثم عادوا من طريق أخرى .

وبينما هم سائرون ، عرض أحد معلمي الشريعة أن يرافق يسوع على الدوام (٧٤) . فقال له يسوع :

(٧٢) لوقا ٩ : ٥١ .

(٧٣) نول : (اقتص) . روك : (انتقم) .

(٧٤) لوقا ٩ : ٥٧ .

« فكّر في الأمر جيداً : إن للثعالب أوكرة وللطيور أعشاشاً . أما أنا فلا أستطيع أن أقول عن أي مكان أنه مكاني الخاص أو أن رأسي يمكن أن يرتاح فيه » .

ثم أخذ يسوع طريقاً أخرى أطول قليلاً للذهاب إلى اورشليم (٧٥) . وكان يرسل دائماً اثنين من مرافقيه ليتقدموه ويعلموا الناس بقدمه ، لأن عدد تابعيه كان كبيراً . وأعطاهم توجيهات تتعلق بسلوكهم أثناء الرحلة . فإنهم يجب ألا يسعوا إلى اغتصاب الحفاوة حيث لا يريدون استقبالهم ، بل عليهم متابعة طريقهم ، وأن يكون هدفهم الأساسي في كل مكان حث الناس على الخير . « ثمة أعمال كثيرة هنا ، ولكن العمال قليلون ! » .

وأخبره التلاميذ أنهم وجدوا استقبلاً طيباً هنا وهناك (٧٦) . ولدى سماعه هذا الخبر قال ما يلي :

« فلتكن مسيحاً ومجدداً يا أبا السماء والأرض ، لأن تمييز كل إنسان للواجب لا يتم بموهبة العلم والمعرفة ، ولأن كل قلب غير فاسد يمكنه أن يشعر من ذاته بالفارق بين الخير والشر . واحسرتاه ! ليت الناس وقفوا عند هذا الحد فلم يختلقوا علاوة على الواجبات التي يفرضها العقل ، نصيباً من الأعباء (٧٧) الأخرى ليعذبوا الانسانية البائسة ! تلك الأعباء التي تصير نبع الكبرياء ، فلا يعرف أحد أن يجد لها إرضاء إلا على حساب الفضيلة » .

وأثناء الرحلة التقى يسوع أحد معلمي الشريعة ، فأراد الأخير محادثته ليعرف مبادئه ويمتحنها . فقال :

« يا معلم ، ماذا عليّ أن أفعل لأستحق السعادة القصوى ؟ » .

فسأله يسوع : « بماذا تأمرك الشريعة ؟ » .

(٧٥) لوقا ١٠ .

(٧٦) لوقا ١٠ : ١٧ وما يليها ؛ متى ١١ : ٢٥ - ٣٠ .

(٧٧) نول : (اعباء) . روك : (عيوب) .

فأجاب : « أن تحب الإله بكل نفسك ، لأنه مثال القداسة ، وأن تحب قريبك حبك لنفسك » .

فقال يسوع : « بالصواب أجبت . افعل هذا فتستحق السعادة القصوى » .

وأراد معلم الشريعة أن يثبت أن هذه الاجابة لم تُرضِ أعماق روحه ، فقال :

« إن هذا يتطلب توضيحاً . فمن هو بالتحديد^(٧٨) هذا القريب الذي نؤمن بحبته ؟ » .

فقال يسوع : « سأشرح لك ذلك بقصة :

« كان رجل ذاهباً من اورشليم إلى أريحا . وكانت طريقه تمر في صحراء غير آمنة . فوقع في أيدي اللصوص الذين سلبوه وضربوه وتركوه هناك نصف ميت . وما كادوا ينتهون من جريمتهم حتى اتفق أن مرّ أحد الكهنة في الطريق عيناها . فرأى الجريح ، ولكنه تابع طريقه . ومرّ أيضاً لاوي في تلك الطريق دون أن تأخذه الشفقة عليه . ولكن سامرياً مرّ من هناك فأشفق عليه حالما رآه ، فاقترب منه وضمّد جراحه ، وصبّ عليها إضافة إلى ذلك زيتاً وخمراً . ثم حمّله على بغله ونقله إلى أحد الفنادق ، حيث تركه ليعتنوا به . وفي الغد ، قبل أن يتابع طريقه ، أعطى صاحب الفندق بعض المال للانفاق على الاسعافات التي ما يزال المريض بحاجة إليها . ودعاه إلى عدم الاقتصاد في المعالجة إذا تعدّت النفقات ذلك المبلغ ، لأنه سيدفعها إليه عند عودته .

« فقل لي الآن ، أي هؤلاء الثلاثة هو الذي تصرف كقريب لهذا البائس ؟ وأيّهم هو الذي اعتبره قريباً ؟ » فقال معلم الشريعة :

(٧٨) كلمة (بالتحديد) لا توجد عند روك .

« الذي عامله برحمة » .

فقال يسوع : « وأنت أيضاً اعتبر كل من يحتاج إلى نجدتك ورحمتك قريباً لك ، مهما كان قومه ومعتقده ولونه » .

ولكن الفريسيين ، العاجزين عن إدراك مذهب يسوع التعليمي^(٧٩) ، لأنه يضع نصب أعينهم قصور طريقتهم الشرعية المحضّة في التصرف إذا ما قورنت بالخلقية ، طلبوا منه مراراً ، كشهادة على تعليمه الذي يدحض قيمة شرائعهم ، ظاهرة جوية خارقة ، شبيهة بالتي كان يهوه يؤكد بواسطتها اعتلانه المهيب . فأجابهم يسوع :

« في المساء تقولون : « غداً سيكون الطقس جميلاً ، لأن الشمس حمراء في الشفق » . ولكن إذا كانت شمس الصباح حمراء مغبرة ، فإنكم تتنبأون بالمطر . وهكذا تعرفون منظر السماء فتتكهنون بالجو الذي سيكون ، أما علامات الزمن الحاضر فلا تعرفون تقديرها . أفلا تلاحظون أن حاجات سامية قد اتضحت في الانسان ، وأن العقل قد استيقظ ؟ وأن العقل يعترض على مذاهبكم التعليمية وتشريعاتكم التعسفية ، وعلى احتقاركم للفضيلة وللمصير النهائي للانسان بأن تخضعونها لمذاهبكم وتشريعاتكم . إن العقل سيعترض على الاكراه الذي تريدون بواسطته الاحتفاظ بسلطة إيمانكم ووصاياكم على شعبكم ! لن تُعطى لكم أية سوى أية المعلمين^(٨٠) الذين يمكنكم أن تتعلموا منهم ما يمكن استخدامه من أجل خيركم الأعظم وخير الانسانية » .

ودعاه أحد الفريسيين^(٨١) إلى الغداء عنده . وتعجب لأن يسوع لم

(٧٩) لوقا ١١ : ١٦ ؛ متى ١٦ : ١ .

(٨٠) نول : (معلمين) ؛ روك : (مذاهب) .

(٨١) لوقا ١١ : ٣٧ ؛ متى ٢٣ : ٢٣ .

« أخصبت أرض رجل غني إلى حد جعله يرتبك من كثرة الغلة .
فاضطر إلى توسيع أهرائه لجمعها . ففكر في نفسه : « عندما تنتظم الأمور ،
أحفظي كل المحصول بعناية ، وهكذا تعيشين في غنى لسنين عديدة .
فاستريحي إذاً وكلي واشربي وتنعمي » .

« ولكنه سمع في تلك اللحظة صوت الموت : « يا جاهل ، في هذه
الليلة ستطلب منك نفسك ، فلمن تجمع هذا كله ؟ » .

« وكذلك مَنْ يكتز كنوزاً ولا يفكر في غنى ومصير هدفهما خالد ، فإنه
يبدل مجهوداً باطلاً من أجل هدف مبتذل . لا يكن الاهتمام بالغنى هو المالىء
نفسكم ، ولتكن روحكم مكرسة للواجب وحده ، وعملكم لمملكة الخير !

« كونوا مستعدين كرجال تسلحوا للحياة وللموت ! وإلا ، فإن محبة
الحياة ستسلح الموت ضدكم بالرعب ، والخوف من الموت سيسرق منكم
حياتكم . لا تؤجلوا ، ولا تعتقدوا أن ليس ثمة ما يستحثكم على تكريس
أنفسكم للغايات السامية ، بدل تلك الغايات القائمة على تكديس الكنوز
والعيش من أجل اللذات . كل لحظة تملصون فيها من خدمة الخير هي
لحظة مفقودة من مصيركم .

« أو أن الموت يفاجئكم ، فتشبهون الوكيل الذي أمّنه سيده الغائب
على العناية ببيته أثناء غيابه . فيفكر الوكيل : إن سيدي سيبقى غائباً مدة
طويلة . ويبدأ في إساءة معاملة الخدم والعيش في الفسق والسكر . ولكن
سيده يفاجئه في اللحظة التي لم يكن يتوقعها ، فيعاقبه بما يستحق .

« وكما أن الخادم الذي يعلم مشيئة سيده ، ولا ينفذها ، يُعاقب بقسوة
تفوق عقوبة مَنْ يتصرف تصرفاً مذنباً دون أن يعلم مشيئة سيده ، فكذلك
يطلب الكثير من الانسان الذي يوثق به ، وتكون لديه الموهبة والظروف
الملائمة لفعل الخير الكثير .

« أتصورون أني جئت لأدعوكم إلى التمتع بالحياة في هدوء ؟ أو أن

المصير الذي انتظره لنفسي وأرغب فيه ، هو مستقبل خال من الاهتمامات
وسعيد ؟ لا ، إن الاضطهاد هو نصيبي ، ونصيبكم أيضاً ! الخلاف والمنازعة
هما محصلة مذهبي التعليمي . ذلك الصراع بين الرذيلة والفضيلة ، بين
التعلق بالاعتقادات والعادات التقليدية للإيمان ، التي أنشأتها سلطة ما في
أدمغة البشر وقلوبهم ، وبين العودة إلى الخدمة المتجددة للعقل المستقر في
حقوقه ، هذا الصراع سيفرق أصدقاء وعائلات ، وسيكون فخراً لنخبة
البشر .

« ولكنه سيكون مميتاً ، إذا وضع أولئك الذين هدموا ما هو قديم لأنه
يقيم عقبات أمام حرية العقل وينجس منابع الخلقية ، إذا وضعوا مكانه إيماناً
مفروضاً ومقيداً بالحرف ، مما يحرم العقل مجدداً من حقه في أن يستمد
الناموس من ذاته ، وأن يؤمن به بحرية ، وأن يخضع له . واحسرتاه ! هذا
الصراع سيكون مميتاً إذا سلموا هذا الإيمان الموصى به بالسيوف وبالواجب
الظاهري ، أو إذا حرّضوا الآباء على الأبناء والأخوة على الأخوة والأمهات
على بناتهن ، أو إذا جعلوا الانسانية خائنة لذاتها ! » .

وروي ليسوع حدث حصل في ذلك الزمان (٨٦) ومفاده أن بيلاطس ،
الوالي الروماني على اليهودية ، قتل عدداً من الجليليين الذين كانوا في سبيلهم
إلى تقديم الذبائح ، دون أن تُعرف الأسباب . وكان يسوع قد ألف طريقة
تفكير تلاميذه (٨٧) الذين رأوا في مرة سابقة أحد العميان ، فاستتجوا للحال
أن هذا الأعمى أو أحد أقاربه يجب أن يكون مجرمًا كبيراً . فوجد يسوع في
هذا الحدث مناسبة للعظة التالية :

« أتظنون أن هؤلاء الجليليين هم أكثر أبناء شعبهم خطيئة حتى كابدوا
هذا المصير ، أو أن أولئك الثمانية أو العشرة الذين سحقهم برج سلدام
مؤخراً ، هم أكثر سكان أورشليم فساداً ؟ لا . فاصدار حكم دون شفقة

(٨٦) لوقا ١٣ .

(٨٧) يوحنا ١١ .

على بشر حصل لهم مثل هذا الشقاء ، ليس الجهة المناسبة التي يجب أن تتأملوا منها هذا الحدث . ولكن ، إذا انتزعكم هذا الحدث من الهدوء الذي تستسلمون إليه ، ومن رضاكم عن أنفسكم ، فيجب أن تبدأوا بضميركم ، وتتساءلوا بكل أمانة ما إذا كنتم تستحقون مصيراً كهذا ؟ اسمعوا القصة التالية :

« زرع صاحب كرم شجرة تين . وكان كلما أتى ليقطف بعض الثمار لا يجد شيئاً . فقال للبستاني : « منذ ثلاث سنوات وأنا آتي إلى هذه الشجرة عبثاً ، أقطعها حتى نستعمل الأرض التي تحتلها استعمالاً أفضل » .

« فأجابه البستاني : « اتركها هذه السنة أيضاً ، حتى اقلب الأرض حولها واسمدها . وأمل أن تعطي ثمراً حينئذٍ . فإذا لم تعطِ ، أقطعها » .

« المصير المستحق ينتظر طويلاً في الغالب ، فيتيح للشريد فرصة إصلاح نفسه ، وللمتكاسل فرصة التدريب على معرفة غايات سامية . فإذا ترك هذه المدة تنقضي ، وهو غير مبال ، يفاجئه مصيره ويقع عليه العقاب » .

وتابع يسوع طريقه نحو أورشليم ، وكان يتوقف هنا وهناك حيث يجد فرصة لاعطاء الناس بعض التعاليم الطيبة . وفي هذه الرحلة طُرح عليه سؤال عما إذا كان عدد الذين سيخلصون قليلاً ؟ فأجاب :

« فليكافح كل منكم حتى يجد الطريق الضيق لطريقة العيش الطيبة . كثيرون يسعون ولا يجدونه . إذا أقفل سيد البيت بابه ، وقرعتموه وصرختم حتى يفتح لكم ، فإنه يجيبكم : « أنا لا أعرفكم » . لقد أكلتم وشربتم معه في الغالب ، واستمعتم إلى تعليمه . ولكنه يجيبكم :

« صحيح أنكم أكلتم وشربتم معي واستمعتم إليّ عندما كنت أعلم . ولكنكم فسدتم ، وأنا لا أعرفكم بين أصدقائي . اذهبوا من هنا ! » .

« إن كثيراً من الذين في المشرق والمغرب وفي الشمال والجنوب ، الذين

يعبدون زوساً أو براهما أو فودن ، سيجدون نعمة امام قاضي العالم ، وكثيرون من الذين يفاخرون بمعرفتهم الله ، ويشوهون هذه المعرفة السامية أمام الآخرين بطريقة حياتهم ، ويظنون أنهم الأولون ، سيكونون ملعونين » .

وحذر بعض الفريسيين يسوع ودعوه إلى مغادرة مقاطعة هيرودوس لأنه يريد أن يقتله . وليس معلوماً إذا كانوا قد فعلوا ذلك بنية طيبة أو لمخطط آخر . فأجابهم يسوع إن طبيعة أعماله لا يمكن أن تسبب أي قلق لهيرودوس ، وأكثر من ذلك ، إنه لأمر شاذ ألا تكون أورشليم ، وهي المسرح المعتاد لموت كثير من المعلمين الذين حاولوا شفاء الشعب اليهودي من تعنته في أحكامه المسبقة وشعوذاته التي كان يضحى في سبيلها بكل قواعد الخلق والحكمة ، ألا تكون أورشليم المكان الذي يجب أن يصيبه فيه مثل هذا المصير .

وعاد مجدداً إلى تناول الطعام عند أحد الفريسيين^(٨٨) ولاحظ مسارعة البعض هناك إلى المقاعد الأولى ، واعتقادهم أنها يجب أن تتغير بحسب طبقتهم . فلفتهم إلى أن المسارعة إلى التدافع من أجل الأماكن الأولى يمكن أن تصبح في الغالب سبباً للفوضى . لأنه إذا جاء شخص من طبقة أرفع ، فيجب أن يرضى الجالس بترك مقعده وتغييره وهو في ارتباك وعلى العكس ، فإن من يجلس في المقعد الأخير ، سيدعوه المضيف إلى الصعود إلى مقعد أعلى ، فيعظم شأنه . وعلى العموم فإن من يرفع نفسه يتضع ، وبالعكس فإن المتواضع يُرفع .

ولفت مضيفه إلى أن يدرك أنه إلى جانب الاستضافة القائمة على دعوة أقاربه وأصدقائه وجيرانه الأغنياء ، الذين يستجيبون في العادة إلى مثل هذه الدلالة على المحبة بدعوات مماثلة ، ثمة استضافة أكثر نبلاً : وهي إطعام المرضى والمساكين والتعساء الآخرين الذين لا يسعهم إعادة الحسنة إلا

بتعبيرهم غير المصطنع عن عرفانهم بالجميل وإحساسهم بالبؤس الذي وُجد مَنْ يؤاسيه ، وبالشعور الذي تمنحه مثل هذه الأعمال ، كسكب البلسم على جروح التعساء وتعزية البؤس .

فقال أحد المدعوين : « طوبى لِمَنْ يكون أحد هؤلاء ، فإنه من مواطني ملكوت الله ! » .

فشرح يسوع هذا المفهوم لملكوت الله بمَثَل الأمير^(٨٩) الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بمأدبة فاخرة ، فدعا كثيراً من الضيوف . وفي يوم الاحتفال أرسل خدمه إلى المدعوين ، ليطلبوا منهم الحضور لأن المأدبة بانتظارهم .

فاعتذر الأول عن عدم المجيء بأن عنده حقلاً يجب أن يزوره . والثاني بأنه قد اشترى خمسة أزواج من الثيران ويجب أن يجربها . أما الثالث فبرّر غيابه بالزواج الذي أقدم عليه . وآخرون عاملوا الخدم باحتقار ، فلم يحضر أحد من المدعوين .

فغضب الأمير وأمر خدمه بالذهاب إلى الشوارع والساحات العامة في المدينة ، ودعوة الفقراء والعميان والمشوهين وكل مَنْ أصيب بعاقة ما ، لأن المصاريف قد أنفقت ، ففعل الخدم . وبقيت بعض المقاعد فارغة . فأرسل الأمير خدمة مجدداً ليفتشوا في الطريق وعلى طول الأماكن المسيجة ، وأن يأتوا بكل مَنْ يصادفونه هناك ، حتى يمتلئ البيت .

« وكذلك ملكوت الله .

« إن الأهداف الحقيرة بالنسبة إلى الكثيرين ذات أهمية تفوق أهمية دعوتهم السامية . والكثيرون مَنْ وضعتهم الطبيعة أو الحظ في وسط دائرة السلطة العليا ، يدعون فرصة عمل الخير العميم تفوتهم ، بطريقة لا تُغتفر .

(٨٩) متى ٢٢ .

وغالباً ما تكون الاستقامة منفية في الأكواخ الحقيرة أو متروكة للعقول المحدودة . القيام بالتضحيات من أهم المميزات الأساسية لمواطن مملكة الله .

« مَنْ يعتبر أن الابن أو الأخ أو الزوج أو الأب ، والسعادة أو الحياة ، أعزّ من الفضيلة ، مثل هذا ليس مؤهلاً لأن يعبد لنفسه طريقاً نحو الكمال أو لأن يقود الآخرين فيها . فمَنْ يريد العمل من أجل الآخرين يجب أن يفحص قواه أولاً ليرى إذا كان قادراً على ذلك .

« وكما أن الانسان الذي يبدأ ببناء منزله ، دون أن يحسب الكلفة كلها مسبقاً ، يضطر إلى أن يترك البناء ناقصاً ويصبح سخرية للناس ؛ وكما أن الأمير قبل أن يقدم على الاشتباك مع الأمير الآخر ، يفحص قواته ، فإذا لم يجدها بمستوى قوات الأمير الآخر ، يسعى إلى الصلح معه ، فكذلك حال مَنْ يرغب في تكريس نفسه لاصلاح البشر ، يجب أن يفحص أولاً ما إذا كان خليقاً بأن يتخلى ، في هذا الكفاح ، عن كل ما يقدم له بعض المتعة » .

وهنا أيضاً حنق الفريسيون^(٩٠) لوجود العشارين والخطاة بين المستمعين إلى يسوع ، دون أن يطردوهم . فقال يسوع :

« إذا ضاع خروف من قطع الراعي ، أفلا يُحس بالفرح عندما يجده ؟ وإذا أضاعت امرأة قطعة من النقود ، أفلا تبحث عنها بعناية ؟ وعندما تجدها ، أفلا تكون سعادتها بالقطعة المستعادة أعظم من سعادتها بالقطع الأخرى التي لم تضعها ؟ أفلا يحس البشر الصالحون بفرح مماثل إذا رأوا أحداً من البشر الضالين عائداً إلى الفضيلة ؟ أريد أن أروي لكم قصة :

« كان لرجل ابنان ، فطلب أصغرهما نصيبه من الميراث ، فقسمه الوالد بينهما . وبعد بضعة أيام جمع الابن الأصغر أمواله وسافر إلى بلد بعيد حتى يستطيع التمتع بها بحرية وحسب ميوله . وهناك انفق ثروته كلها في

(٩٠) لوقا ١٥ .

حياة الفجور . فأصابه البؤس الذي زادت منه مجاعة كبيرة حصلت هناك .
وأخيراً وجد لنفسه مكاناً عند رجل أرسله إلى الحقول ليرعى الخنازير ،
فاضطرب إلى أن يقتسم وآياها الغذاء المؤلف من البلوط . وذكره مصيره الحزين
بمنزل والده . وقال في نفسه : « كم يفضلني أجراً أبي الذين لا ينقصهم
الخبز أبداً ، أما أنا فأهلك من الجوع . أريد أن أعود إلى أبي واعترف له : يا
أبتاه ! لقد خطئت إلى السماء وإليك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً .
فاقبلني كبعض اجرائك ! » .

« ثم نفذ ما فكر فيه . ورآه أبوه قادماً من بعيد ، فركض نحوه وألقى
بنفسه على عنقه وأخذ يقبله . فقال ذلك التاعس التائب :

« واحسرتاه ، أن خطاياي تجعلني غير مستحق أن أدعى لك ابناً » .

« ولكن الأب أمر خدمه أن يقدموا للابن اجمل ثوب وأن يعطوه
حذاء . وقال : « اذهبوا العجل المسمن . فإننا نريد أن نفرح جميعاً ، لأن
ابني الذي كنت اعتبره ميتاً قد عاش . إنه كان ضالاً فوجد ! » .

« وفي هذا الوقت عاد الابن الأكبر من الحقول . وما كاد يقترب من
المنزل حتى سمع الفرح الصاخب ، وسأل عما حدث . فلما أخبره أحد الخدم
غضب ، وأبى أن يدخل إلى المنزل . فخرج الأب وألح عليه أن يدخل .
لكن الابن رفض أن يسمع شيئاً وقال :

« إنا عندك منذ سنين ، اعمل من اجلك وانفذ ارادتك في كل شيء ،
ولم تعرض عليّ مرة أن أتلهى مع أصدقائي . ويكفي أن يأتي هذا الابن ،
الذي بدد ثروته مع البغايا ، حتى تقيم له مأدبة ! » .

« فقال الأب : « يا بني ، أنت معي دائماً ، ولا يعوزك شيء ، وكل ما
هولي فهو لك . يجب أن تفرح وتغتبط لأن أخاك الذي كان ضالاً قد وجد
نفسه ، والذي تخلينا عنه قد تعافى » .

وفي مناسبة أخرى لا نعرفها ، روى يسوع لأصدقائه القصة التالية :

« كان لرجل غني وكيل^(٩١) . فنقل إليه أنه يبذر الأموال التي أمّنه
عليها . فدعاه سيده وقال له :

« ما هذا الذي اسمعه عنك ! أدّ حساب وكالتك ، فلا يصح أن
تكون لي وكيلاً بعد اليوم » .

« ففكر الوكيل في ما عليه أن يفعله ؛ فإنه فقد عمله ، ولا يقوى على
العمل كأجير ، ويستحي من الاستعطاء . وأخيراً وجد وسيلة للتخلص من
الورطة ، بأن يجعل من مديني سيده أصدقاء له حتى يقبلوه لديهم عندما
يضطرب إلى ترك عمله . فدعاهم واحداً بعد الآخر .

« وأعطى الأول الذي كان عليه مئة برميل زيتاً ، صكاً بخمسين برميلاً
فقط . وجعل دين الآخر ثمانين مداً حنطة بدلاً من مئة . وهكذا فعل مع
الآخرين . فلما علم السيد بذلك فيما بعد ، اعترف للوكيل الخائن بذكائه .
ذلك أن البشر الشرفاء غالباً ما يتفوق عليهم الخبثاء ، لأن دهاء هؤلاء لا
يجعلهم يترددون في خيانة الأمانة .

« إنني استخلص لكم من هذه القصة النصيحة التالية : استخدموا
فكركم الثاقب ، واستعملوا المال الذي يمكن أن يكون لديكم من أجل اتخاذ
أصدقاء من البشر ، وخاصة من التعساء . إنما ليس على حساب الاستقامة
كما فعل هذا الوكيل الخائن . فمن لا يكون أميناً على القليل لن يكون أميناً
على الكثير . وإذا لم تتمكنوا من الاستقامة في مسائل المال ، فكيف ستكونون
عندما يتعلق الأمر بالصالح الانساني الأسمى ؟

« إذا تمسكتكم بشيء ، وتعاطيتم معه وكأنكم غرباء ، إلى درجة نسيان
الفضيلة بسببه ، فماذا ينتظر منكم أن تفعلوا أكثر من ذلك ؟ لا تجعلوا
هدف حياتكم الأسمى العمل لمصلحتكم ولخدمة الفضيلة ، لأنها أمران
متناقضان » .

(٩١) لوقا ١٦ .

وكان بعض الفريسيين يستمعون إلى كل ذلك وهم من محبي المال ، فسخروا من يسوع لانتقاصه من قيمة الغنى إلى هذا الحد . فالتفت يسوع نحوهم وقال :

« أنتم تدأبون لكي تظهروا أمام عيون البشر بمظهر القداسة ، ولكن الله يعلم ما في قلوبكم . من يظهر عظيماً ومُعْتَبِراً استناداً إلى رأي الخواس ، سيتلاشى في عجزه التام أمام الله .

« كان رجل غني يلبس الأرجوان والحرير ، ويصنع كل يوم الكثير من الطعام الفاخر . وأمام بابه كان يجلس في الغالب فقير يدعى لعازر ، وجسده مريض ومليء بالقروح . ولم يكن أحد يخفف عنه . وكانت الكلاب تأتي أحياناً فتلحسه . ويفرح إذا استطاع تسكين جوعه بفتات مائدة الغني . ومات المسكين ، وهو يسكن الآن في مقام السعداء . وبعد ذلك مات الغني فدفن بأبهة .

« ولكن نصيب الفقير لم يكن نصيبه . وعندما رفع عينيه وشاهد لعازر عند إبراهيم ، صرخ : « ارحمني يا ابي إبراهيم ، وأرسل لعازر ، فما يعزيني في عذابي سوى تلطيف الآلام ، كما يُبرّد المحموم بقطرة ماء » .

« فأجابه إبراهيم : « تذكر يا بني أنك نلت نصيبك من الخير في الحياة الأخرى ، أما لعازر فقد نال الشقاء . إنه يتعزى الآن ، أما أنت فتتعذب » .

« فقال : « أسألك إذاً يا ابي أن ترسله إلى بيت أبي ، لأن لي خمسة أخوة ، فليخبرهم بما حلّ بي ولينذرهم حتى لا ينالوا هم أيضاً مصيراً كهذا » .

« فقال إبراهيم : « إنهم يمتلكون ناموساً في عقلهم . وعندهم تعليم البشر الصالحين ، فليستمعوا إليهم » .

« فقال الشقي : « هذا لا يكفيهم . ولكن إذا خرج إنسان من القبر

وتراءى لهم ، فانهم يصيرون أحياناً بالتأكيد » .

« فأجابه إبراهيم : « ما أعطي للإنسان هو ناموس عقله . ولن تبلغ إليه أية معرفة أخرى ، لا من السماء ولا من القبر ، لأنها تتعارض مع روح ذلك الناموس الذي يفرض خضوعاً حراً وليس خضوعاً عبودياً ، مغتصباً بالخوف » .

وفي مناسبة أخرى ، مجهولة أيضاً^(٩٢) ، طلب أصدقاء يسوع منه أن يعزّز شجاعتهم وثباتهم . فأجاب :

« لا شيء يمكنه أن يفعل ذلك سوى التفكير في واجبكم وفي الهدف الأسمى وفي المصير المعطى للإنسان . وبهذه الطريقة لا تعتقدون مطلقاً أنكم قد بلغت نهاية عملكم ، فحقّ لكم أن تتمتعوا منذ الآن . فعندما يعود الخادم من الحقول إلى المنزل لا يقول له سيّده : « إذهب الآن وأرح نفسك » ، بل « حضر لي طعامي الآن واخدمني ، وبعد ذلك تأكل أنت » . وعندما يفعل الخادم ذلك ، لا يعتقد سيّده أن عليه أن يشكره على ما قام به .

« وكذلك أنتم ، فعندما تفعلون ما يجب عليكم أن تفعلوه ، لا تقولوا : « لقد فعلت أكثر من الضروري ، ومرّ زمن العمل الآن ، ويجب أن يبدأ زمن الراحة » ، بل قولوا : « إننا لم نفعل سوى واجبنا » .

ومرة أخرى سأل الفريسيون - الذين لا يستطيعون التحرر من تصورهم الحسيّ لملكوت الله - سألوا يسوع الذي كان يتكلم دائماً على هذه الفكرة : « متى سيأتي ملكوت الله ؟ » .

فأجابهم : « إن ملكوت الله لن يظهر بأبهة أو بعلامات خارجية . ولا يمكن أن يقال : « أنظر ، إنه هنا أو إنه هناك » ، لأن ملكوت الله يجب أن يؤسس في داخل نفوسكم » . ثم توجه إلى تلاميذه :

(٩٢) لوقا ١٧ : ٥ .

« أنتم أيضاً ترغبون دائماً في رؤية ملكوت الله مقاماً على الأرض .
وغالباً ما يُقال لكم أن ثمة أخوية سعيدة مماثلة قائمة هنا أو هناك بين
أشخاص يخضعون لنا موس الخلقية . لا تركضوا وراء مثل هذه السرابات .
ولا تنتظروا رؤية ملكوت الله في وحدة خارجية مشرقة بين بعض البشر تحت
شكل دولة ، ولا في أي مجتمع تحت سيطرة الشرائع العامة لاحدى
الكنائس . فليست هذه الحالة الهادئة والمشرقة هي مصير مواطني ملكوت الله
الحقيقيين الفاضلين ، بل الاضطهاد الذي يأتي غالباً من أشخاص مثل اليهود
الذين يفاخرون بكونهم من مواطني مثل ذلك المجتمع .

« فأي شخصين يشهران الايمان نفسه ، وينتميان إلى الكنيسة ذاتها ،
يمكن أن يكون أحدهما صالحاً والآخر سافلاً . فلا تستمروا في التعلق بالشكل
الخارجي ! لا تتركوا أنفسكم تنزلق إلى طمأنينة متوانية ، بشعوركم أنكم
بمراعاتكم الدقيقة للشكل تؤدون واجبكم ، وبهذا تجدد محبة الحياة واللذة
شبعها . فمن لم يكن قادراً على التضحية بهذا الحب من أجل الواجب ،
يكون بذلك قد جعل من نفسه غير مستحق للواجب .

« وكما أن المثابرة يجب ألا تفارقكم^(٩٣) إذا رأيتم أن آمالكم باكتساب
الخير بالنضال لم تتحقق خلال فترة طويلة ، فيؤدي ذلك إلى قراركم أن
تسبحوا مع التيار الكلي للفساد ، لأنكم مرهقون ومتكدرون ، وكما أن
استقامة القاضي ليست هي التي تجعل أحد أتباعه مفضلاً لديه ، بل رغبته في
التخلص من طلباته الملحة ، فكذلك أنتم أيضاً تصنعون الخير الكثير
بمثابرتكم . فإذا أدركتم بكل أنفسكم عظمة الهدف الذي يحدده الواجب ،
فإن جهودكم ، مثل الهدف ، تستمر إلى الأبد ولا تضعف مطلقاً ، سواء
أرأيتم نضوج الثمار في هذه الحياة أم لم تروها ! » .

ولأجل الفريسيين الذين يعتقدون أنهم كاملون ، فيحتقرون البشر
الآخرين بسبب هذا الادعاء ، روى يسوع القصة التالية :

(٩٣) لوقا ١٨ .

١٠٠

« ذهب رجلان إلى الهيكل للصلاة ، أحدهما فريسي والآخر عشار .
فصلى الفريسي بصوت مرتفع قائلاً :

« أشكرك اللهم على أنني لست كسائر الناس ، لا كهذا العشار ، لصاً
أو ظالماً أو زانياً . فأنا أصوم في الأسبوع مرتين ، واشترك في الخدمة الإلهية
بانتظام ، وأؤدي العشر لهيكلك بنزاهة » .

« أما العشار فوقف بعيداً عن هذا القديس ، ولم يجرؤ على رفع عينيه
نحو السماء ، بل كان يقرع صدره ويصلي بحرارة :

« اللهم ، ارحمني أنا الخاطئ ! » .

« أقول لكم إن هذا عاد إلى منزله وقد نال ضميره تعزية أكثر من
الفريسي » .

وجاء أحد الوجهاء الشبان إلى يسوع وقال (٩٤) :

« أيها المعلم الصالح ، ماذا يجب أن أفعل لأكون فاضلاً ، واستحق
أمام الله السعادة القصوى بعد هذه الحياة ؟ » .

فأجابه يسوع : « لم تدعوني صالحاً ؟ فلا صالح سوى الله . أنت
تعرف جيداً الوصايا التي يلقيها معلموكم : « لا تزني ، لا تقتل ، لا تشهد
بالزور ، اكرم أباك وأمك » .

عند ذاك أجابه الشاب :

« لقد راعيت ذلك منذ صباي » .

فقال يسوع : « حسن ، ولكن إذا احسست أن باستطاعتك أن تفعل
أكثر من ذلك ، فاستعمل غناك في نجدة الفقراء ، وحث على الخلقية ، وكن
مساعداً لي في ذلك » .

(٩٤) لوقا ١٨ : ١٨ .

فحزن الشاب عند سماعه هذا ، لأنه كان غنياً جداً . فلاحظ يسوع ذلك وقال لتلاميذه :

« ما أعظم القوة التي تورط بها محبة المال الانسان في حبائها ! وما أثقل القيد الذي تكبل به الفضيلة ! الفضيلة تقتضي التضحيات ، ومحبة المال تطلب دائماً مكاسب جديدة . تلك تتطلب أن نضع حداً لطموحاتنا ، وهذه تريد أن توسع وتزيد في ملكيتها » .

فسأله أصدقاؤه :

« ولكن كيف يمكن أن نأمل ألا تجعل نزعة الطبيعة الانسانية هذه الخلقية مستحيلة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إن تناقض هذه النزعات ألغى عندما أعطى الله إحداها سلطة تشريعية محضة تأمر بالواجب : هذه السلطة تسعى إلى أن تصبح متفوقة ، والله أعطاها القوة لأن تصبح كذلك » .

فقال بطرس ، أحد أصدقاء يسوع :

« أنت تعلم أننا قد تركنا كل شيء حتى نركن إلى تعليمك ، ونكرس أنفسنا للخلقية وحدها » .

فقال يسوع : « لأجل كل ما تركتموه ، فإن الشعور الذي اكتسبتموه بعيشكم من أجل الواجب الوحيد يكون تعويضاً نفسياً لكم ، في هذه الحياة وفي الأبدية كلها » .

ووصل يسوع إلى ضواحي اورشليم^(٩٥) مع تابعيه ، وهم الاثني عشر الذين اختارهم . فاطلعهم على احساساته الداخلية الكثيرة عن الطريقة التي

(٩٥) لوقا ١٨ : ٣١ ، متى ٢٠ : ١٧ .

سيستقبل ويعامل بها في اورشليم ، تلك الاحساسات المتناقضة تماماً مع اعتقاد تلاميذه بما سيحصل سواء حين وصوله إلى اورشليم أو إبان اقامته فيها .

فحتى هؤلاء التلاميذ الذين نعموا برفقة يسوع يوماً وسمعوا تعليمه ، كانوا يعللون النفس في رؤوسهم اليهودية بأن يسوع سيظهر علناً أمام الشعب كملك ، فيعيد بريق الدولة اليهودية واستقلالها عن روما . وأنه سيعوض الحرمان الذي كابدوه ، بصفتهم مساعديه وأصدقاءه ، باعطائهم سلطة ومجداً . ولم يكونوا قد أخذوا هذه الآمال بعد . ولم يتكيفوا مع المعنى الروحي للملكوت الله باعتباره سيادة القوانين الخلقية على البشر .

ودنت أم يوحنا ويعقوب من يسوع وارتمت على قدميه . فلما سألها عن حاجتها ، ظنت أنها اقتربت ، وولديها ، من تحقيق آمانيهم ، فطلبت منه :

« عندما^(٩٦) تنشئ مملكتك ، ارفع ابني إلى المقام الذي يأتي بعد مقامك مباشرة » .

فأجابهم يسوع :

« إنكم لا تعرفون ما تسألون . هل أنتم مستعدون للحياة من أجل الواجب الذي اضطلعتم به لاصلاح البشر ، ومقاسمتي مصيري ، مهما يكن ؟ » .

فأجابوا وهم يعتقدون أن هذا المصير لا يمكن أن يكون إلا مصيراً مشرقاً :

« أجل ! نحن مستعدون ! » .

فقال يسوع :

(٩٦) نول (عندما تنشئ) . روك : (إذا انشأت) .

« قوموا بواجبكم إذا ، واخضعوا بهدوء لمصيركم . ولكن لا تنتظروا رؤية آمالكم التي اظهرتموها محققة . فلا يحدد قيمتكم أمام الألوهة سوى طهارة عواطفكم المكشوفة أمام الله ، وليس أمامي » .

وغضب التلاميذ الآخرون لطلب الأخوين . فحذّروهم يسوع قائلاً :

« أنتم تعلمون أن الرغبة في السيطرة شهوة مليئة بالاغواء ، وشائعة بين البشر . وهي تتجلى في أوسع حلقات الحياة وأضيقتها على السواء ! فلتكن مقصاة عن جماعتكم ! تمسكوا بمحبة بعضكم بعضاً ، وخدمة بعضكم لبعض ، كما أن هدف حياتي لم يكن مطلقاً أن آمر الآخرين ، بل أن أخدم الإنسانية ، إلى درجة التضحية بحياتي من أجلها » .

ورغب رفاقه في أن يعرفوا ما إذا كان سيعطيهم نصيباً بارزاً من سلطانه الذي أصبح وشيكاً ، بسبب صداقته لهم وعطفه عليهم ، فحدثهم عن اختلاف قيمة البشر بالمثل التالي :

« ذهب أحد الأمراء إلى بلد بعيد ليتولى الحكم . وقبل أن يغادر البلد الذي كان سيّده سابقاً ، عهد إلى خدمه بعشر وزنات حتى يتاجروا بها . وأرسل أهل بلده في اثره وقدأ ليقول له إنهم لن يعترفوا بامارته عليهم . ورغم ذلك فإنه حفظ العرش بعد رجوعه ، ثم طلب من خدمه أن يؤدوا الحساب عن المال الذي عهد به إليهم . فقال الأول :

« لقد ربحت عشر وزنات بالوزنة التي سلّمتها إليّ » .

فأجابه الأمير : « جيّد ، لقد أحسنت ادارة القليل الذي اعطيتك آياه ، أريد أن اقيمك على الكثير ، فأعهد إليك بحكم عشر مدن » .

وربح الثاني بالوزنة خمس وزنات ، فأقامه على حكم خمس مدن . وقال خادماً آخر :

« إنني أعيد إليك الوزنة دون أن أفقدها . لقد حفظتها بعناية ، وخفت

أن أجازف بها هباءً . فأنت سيّد قاسٍ ، تريد أن تأخذ ما لم تستودع ، وتحصد ما لم تزرع » .

فأجابه الأمير : « إن تبريرك يدينك . فما دمت تعلم أنني رجل قاسٍ ، وأنني أريد أن أحصد ما لم أزرع ، فلماذا لم تعط أموالك لبعض الصيارفة ؟ حتى يمكنك أن تعيده إليّ مع الفائدة . لقد فقدت مالك ، ويجب أن يكون لمن ربح الوزنات العشر » .

فتعجب الخدم الآخرون لرؤيتهم صاحب الوزنات العشر يأخذ هذه الوزنة أيضاً .

ولكن الأمير قال لهم : « مَنْ يحسن استعمال ما يُعهد به إليه يُعطي المزيد أيضاً . أمّا الذي يسيء استعماله ، أو الذي لا يستعمله على الاطلاق ، فيكون بعمله هذا غير مستحق لما أُعطي له . والآن ، أحضروا أمامي أولئك الذين رفضوا اطاعتي حتى أعاقبهم » .

وكما فعل هذا الأمير ، فإن الله يحكم في قيمة البشر بحسب استعمالهم المخلص للقوى التي اعطيت لهم ، واطاعتهم للقوانين الخلقية التي يجدون أنفسهم خاضعين لها .

وهنا أيضاً (وكان يسوع في أريحا التي تبعد عن اورشليم مسيرة ست ساعات) أظهر الفريسيون من جديد استهجانهم لتزول يسوع في منزل أحد العشارين . وكان اسمه زكّا . فقد رغب في الاقتراب من يسوع ، ولكنه لم يتمكن بسبب الجمع ولأنه قصير القامة ، فصعد إلى شجرة . وفوجيء بالتكريم الذي خصّه به يسوع عندما اختار منزله للاستراحة . واستطاع أن يتصور الفكرة التي سيكونها يسوع عنه ، بما أنه علم المهنة التي مارسها حتى ذلك اليوم ، وشعر أنه قد يظهر له بمظهر ليس في صالحه ، فأعلم يسوع أنه قد أصلح طريقة تفكيره ، وقال له :

« سأعطي الفقراء نصف الثروة التي أملكها ، وإذا كنت قد استغللت

أحداً ، فسأصلح الضرر أربعة أضعاف » .

فأبدى يسوع ارتياحه لعودته إلى الاستقامة ، وأظهر له أن هدفه على الأرض هو قيادة البشر في هذا الطريق .

واقترب عيد الفصح^(٩٧) ، فكان معظم اليهود موجودين في أورشليم . وأقام يسوع بضعة أيام بالقرب منها ، في مدينة تدعى افرام ، وفي بيت عنيا بالتحديد^(٩٨) .

وأثناء إحدى وجبات الطعام التي أعدت هناك ، حضرت امرأة تدعى مريم ، وهي صديقة يسوع ، فدهنت قدميه بطيب غالي الثمن ثم مسحتهما بشعرها . ولاحظ يهوذا ، أحد رسل يسوع ، وهو الذي يدير مال الجماعة ، أنه كان من الأفضل بيع هذا الطيب وتوزيع ثمنه على الفقراء . وكان يأمل في وضع هذا المال في كيسه ، لأنه ما كان لينسى نفسه حين توزيعه على الفقراء . ولكن يسوع لفته إلى عدم إحزان قلب مريم بتأنيبها ، فقد لمس في عملها تعبيراً عن صداقتها ، لأن هذا العمل كان شبيهاً باظهار المحبة نحو الأموات بتحنيطهم . أما يهوذا فبإمكانه أن يظهر في كل مناسبة هذه الرحمة التي يدعيها نحو الفقراء .

وفي هذه الأثناء^(٩٩) كان المجمع الكبير ، الذي ينتظر قدوم يسوع إلى العيد مثل سائر اليهود ، قد اتخذ قراراً بالقاء القبض عليه في تلك المناسبة والعمل من أجل الحكم عليه بالموت . ولكنهم قرروا تأجيل ذلك إلى ما بعد العيد ، خوفاً من أن يحاول مواطنوه الجليليون ، الحاضرون هناك ، اطلاق سراحه . واتخذ المجمع الكبير ترتيباته حتى يكون مستعداً^(١٠٠) في اللحظة

(٩٧) يوحنا ١١ : ٥٤ .

(٩٨) يوحنا ١٢ .

(٩٩) متى ٢٦ : ٣ .

(١٠٠) يوحنا ١١ : ٥٦ - ٥٧ .

التي يُشاهد فيها يسوع في الهيكل . لكن المكلفين بمراقبته كانوا مرتبكين لأنهم لم يروه في أيام العيد الأولى .

وبعد ستة أيام من هذه المأدبة وصل يسوع إلى أورشليم ، وما أن تبيّن المدينة حتى دمعت عيناه ، فقال :

« ليتك فهمت ما هو المفيد لخلاصك ! ولكنه حجب عنك ، لأن كبرياءك واصرارك على أحكامك المسبقة وتعصبك ستعرض اعداءك ضدك . وسيحاصرونك ويطبقون عليك من كل جانب ، إلى أن تهدم دولتك ودستورك ، وهما سبب كبريائك ، وتدفنين تحت ركامهما ، دون أن تنالي الاحساس والمجد بأنك قد مت في دفاع نبيل عن شيء عظيم وخير » .

وكان يسوع صاعداً على حمار حسب عادة الشرقيين فجاءه جمع من الناس الذين يعرفونه ، ورافقوه وأغصان الزيتون بأيديهم . فدخل المدينة وسط أغانيهم وتهليلاتهم .

ولم يبق يسوع ليلاً في أورشليم بل في بيت عنيا^(١٠١) . ولكنه عاد في الصباح إلى أورشليم ، وظهر أمام الشعب في الهيكل حيث أخذ يعلم .

وسعى أعداؤه إلى توريطه بأسئلة محرجة . وكان قصدهم أن يجدوا حجة ليشكوه^(١٠٢) من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن يجعلوا الشعب يكرهه ، وهو الأمر الذي لم يكونوا مطمئنين إليه . وزاد من مخاوفهم الاستقبال الكبير الذي لقيه عند وصوله إلى المدينة .

ففي أحد الأيام ، وهو واقف في الهيكل يعلم جمعاً من المستمعين ، سأله عن السلطة التي بموجبها سمح لنفسه أن يعلم الشعب ؟ فأجابهم يسوع :

(١٠١) متى ٢١ : ١٧ .

(١٠٢) لوقا ٢٠ .

« اسمحوا لي ، عوضاً عن الجواب ، أن أسألكم سؤالاً آخر : هل كانت حماسة يوحنا للحقيقة والفضيلة هي السبب الذي دفعه إلى التعليم ، أم أنه تبع بتعليمه أهدافاً أنانية ؟ » .

ففكر الذين سألوه :

« إذا أجبنا عن السؤال الأول بالإيجاب ، فإن يسوع سيسألنا : فلماذا إذاً لم تستمعوا إليه ؟ » وإذا أجبنا بالإيجاب عن السؤال الثاني فإننا نثير الشعب ضدنا . فقالوا انهم لا يعلمون .

فقال لهم يسوع : « وأنا أيضاً لا أستطيع أن أجيب عن سؤالكم . ولكن احكموا أنتم :

« كان لرجل ابنان ، فقال للأول أن يذهب إلى الكرم ويعمل فيه^(١٠٣) فقال انه لن يذهب . ولكنه ندم ثم ذهب إلى الكرم . وقال للثاني مثل ذلك . فأبدى للحال همّة ووعده بالذهاب . ولكنه لم يذهب . فأيهما أظهر طاعة لأبيه ؟ » .

فقالوا : « الأول » .

فأجابهم يسوع : « وكذلك أنتم . فثمة بشر معروفون بكونهم فاسدي الخلق ، ولكنهم أصغوا إلى صوت الفضيلة عندما دعاهم يوحنا ، وهم يفوقونكم الآن بمشاعرهم الطيبة ، أنتم اللاهجين دائماً باسم الله والمدّعين أنكم لا تعيشون إلا من أجل عبادته » .

ثم روى لهم يسوع قصة ثانية :

« غرس رجل كرماً عظيماً ، وسيجّه بالجدران وحصّنه ، وسلّمه إلى بعض الكرامين ليحرثوه ثم ذهب . وفي الخريف أرسل خدّمه لأخذ نصيبه مما

(١٠٣) متى ٢١ : ٢٨ .

أنتجه الكرم . ولكن الكرامين أساءوا معاملتهم غاية الاساءة . وكذلك كان نصيب الجماعة الثانية التي أرسلها صاحب الملك . فأرسل ابنه آملاً أن يحترمه الكرامون . ولكن هؤلاء فكروا في أنه الوريث ، وأنهم بموته يضعون يدهم على الملك كله . فقتلوه . وهنا سأل يسوع الذين حوله : ماذا يفعل صاحب الكرم .

فقالوا : « يعاقب الكرامين بالقسوة التي يستحقونها ، ويعطي الكرم لكرّامين آخرين يقدمون إليه الثمر كما ينبغي » .

فقال يسوع : « وهكذا اليهود ، فقد أتيح لهم قبل سواهم من أمم الأرض ، أن ينالوا المفاهيم الصحيحة للألوهة ، ولمشيئتها بالنسبة إلى البشر . ولكنهم لم يقدموا الثمار التي تجعل الانسان مقبولاً أمام عيون الآلهة . ولهذا يستحيل أن تعتقدوا أنكم المفضلون عند الإله ، بسبب هذه الأقدمية وحدها . ولهذا أيضاً ، فمن الجريمة أن تسيؤوا إلى البشر الذين يشعرون أو يقولون لكم إن ثمة أموراً أسمى من هذه ، وهي التي تمنح الانسان قيمة حقيقية » .

وكاد أعضاء المجمع الذين أعطوه هذه الفرصة لتوبيخهم ، أن يلقوا أيديهم عليه لولا خوفهم من الشعب .

وكان بعض اليهود اليونانيين^(١٠٤) قد جاؤوا أيضاً من أجل العيد ، وأرادوا مخاطبة يسوع . ويبدو أنهم توجهوا إلى بعض أصدقاء يسوع حتى يطلبوا منه أن يحادثهم . ولم يبدِ يسوع أي فرح ، لأنه ظنّ أنهم قد أتوا بالافكار اليهودية المعتادة عن الماسيا ، وأنهم يريدون أن يتوسلوا إليه مسبقاً ، بصفته ملك اليهود وسيدهم العتيد . فقال لتلاميذه في تلك المناسبة :

« نخطيء هؤلاء الناس إذا توهّموا أنني أطمح إلى الظهور بمظهر الماسيا كما يتصورونه هم ، ويخطئون إذا اعتقدوا أنني أطلب أن يخدموني ، أو أنني

(١٠٤) يوحنا ١٢ : ٢٠ .

سأغترّ إذا تقدموا لزيادة حاشيتي . نكون أخوة ، ومن جماعة واحدة ، إذا أطاعوا قانون عقلهم المقدس . وإذا اعتقدوا أن هدي هو المجد والقوة ، فإنهم يتجاهلون المصير الأسمى للإنسان ، أو يتصورون أنني أتكر له . فكما أن البذرة الموضوعة في الأرض تموت أولاً ، حتى تصعد نواتها في ساق ، كذلك أنا أيضاً ، لا أطلب أن أعيش حتى أرى الثمار التي يهدف إليها عملي ، وكذلك روحي ، فهي لم تنجز مصيرها في غشاء هذا الجسد .

« هل يجب أن أخون ما أعلم أنه هدي ، حتى أحفظ هذه الحياة ؟ إنني أتأمل بحزن النزعات التي تتجه إليها مخططات موجهي هذا الشعب : إنهم يريدون انتزاع حياتي . فهل يجب عليّ ، من أجل هذا الأمر ، أن أرغب أو أن أطلب من الله : « أبت ، أنقذني من هذا الخطر » ؟ لا ، لأن حماسي في دعوة البشر إلى الخدمة الحقيقية للألوهة والفضيلة ، هي التي تضعني في هذا الموقف ، وأنا مستعد للخضوع إلى كل التبعات التي يمكن أن تنتج .

« أفهذا يناقض مرة أخرى توقعكم أن ماسياً الذي تنتظرونه يجب ألا يموت ؟ وهل الحياة ، بحد ذاتها ، أمر عظيم الشأن في نظركم ، والموت أمر مرعب جداً ، حتى أنكم لا تستطيعون التوفيق بين الموت وبين فكرتكم عن رجل يستحق احترامكم ؟ ولكن هل أطلب الاعتبار لشخصي ؟ وهل أطلب الإيمان بي ؟ أو هل أريد أن أفرض عليكم معياراً للقياس حتى تميزوا قيمة البشر وتحكموا عليهم ، وكأنه اختلاق مني ؟ لا ، إن احترامكم لأنفسكم ، والإيمان بالناموس المقدس لعقلكم ، والأصغاء إلى صوت الحكم الداخلي لنفوسكم وإلى صوت الضمير ، والمقياس الذي يكون هو نفسه مقياس الألوهة ، هذه الأمور هي التي أريد أن أوقفها فيكم ! » .

وأرسل الفريسيون وأتباع هيرودوس بعض الناس إلى يسوع ليدخلوا معه في حوار يمكن أن يقدم حجة للدعاء عليه أمام السلطة الرومانية^(١٠٥) . وحتى ندرك كم كان السؤال خداعاً ، وبأية بساطة يمكن أن يجرح يسوع

(١٠٥) لوقا ٢٠ : ٢٠ .

بجوابه السلطة الرومانية والاحكام المسبقة لليهود في آن ، يجب أن نتذكر طريقة التفكير اليهودية التي تعتبر أن دفع الجزية لأجنبي أمر لا يُطاق ، لأنهم يريدون أن يدفعوا لإلههم وللهيكل .

فقال المرسلون :

« يا معلم ، إننا نعلم أنك صادق في ما تقول ، وأنتك تتقيد بالحقيقة الصارمة ، ولا تحابي أي إنسان في ما تقول . فقل لنا : هل يحق أن ندفع الجزية للامبراطور الروماني ؟ » .

وعلم يسوع مخططهم ، فقال :

« أيها المراءون ، إلآم تسعون ، إلى نصب فخ لي^(١٠٦) ؟ أروني ديناراً ! لمن هذه الصورة ؟

فأجابوا : « للامبراطور » .

فقال يسوع : « حسناً ، إذا كنتم تسلّمون للامبراطور النقود التي تستعملونها ، فأدّوا إذاً للامبراطور ما هو للامبراطور ، ولإلهكم ما تستلزمه عبادته » .

فاضطروا إلى الاكتفاء بهذا الجواب الذي لم يمنحهم أي مأخذ عليه .

وأراد الصدوقيون ، وهم طائفة من اليهود لا تؤمن بخلود النفس ، أن يجربوا بدورهم آراءهم ضد يسوع . فقالوا له :

« إذا مات إنسان دون أن يترك ولداً ، يجب على أخيه ، حسب شرائعنا ، أن يتزوج أرملته . وحصل أن امرأة تزوجت على هذا النحو سبعة

(١٠٦) في نص روك لا توجد فاصلة بعد (إلآم تسعون) . فإذا حذفنا هذه الفاصلة من النص الألماني تأخذ الجملة معنى مختلفاً ، وهو التالي : (أيها المراءون لماذا تسعون إلى نصب فخ لي ؟) .

إخوة واحداً بعد الآخر ، دون أن يخلفوا نسلًا . فلمن تكون المرأة إذا كان البشر يعيشون بعد الموت ؟ » .

فأجاب يسوع على هذا الاعتراض الغبي :

« صحيح ان البشر يتزوجون في هذه الحياة ، ولكن ما إن يدخل الخالدون في جماعة الأرواح المجردة ، حتى يفقدوا هذه الحاجات مع أجسادهم ! » .

وسمع أحد الفريسيين إجابات يسوع الموقفة على أسئلة الآخرين ، فسأله بدوره سؤالاً (من غير سوء نية على ما يبدو)^(١٠٧) : « ما هو المبدأ الأسمى للخلقية ؟ » فأجابه يسوع :

« ثمة إله ، ويجب أن تحبه بكل قلبك ، وأن تكرس له إرادتك ونفسك بالكلية ، وكل قواك . هذه هي الوصية الأولى » .
« والثانية ملزمة كالأولى ، وهي التالية : « أحب كل إنسان كنفسك » . ولا توجد وصية أسمى » .

فأعجب الفريسي بهذا الجواب ، وقال :

« لقد نطقت بالحق ، فتكرس نفسك لله ، ومحبتك قريبك كنفسك ، يفوقان كل الذبائح والبخور » .

فسر يسوع من مشاعر الرجل الطيبة ، وقال :

« لست بعيداً ، بهذه المشاعر ، عن أن تكون من مواطني ملكوت الله ، حيث لا تلتبس نعمته بالذبائح والكفارات ، أو بعبارة من أطراف الشفاء ، أو بالتخلي عن العقل » .

وكان في زاوية الهيكل صندوق تلقى فيه التبرعات للهيكل^(١٠٨) .

(١٠٧) روك : (بسوء نية على ما يبدو) .

(١٠٨) لوقا ٢١ : ١

فلاحظ يسوع بين الذين يضعون فيه نصيبهم ، امرأة فقيرة وضعت فلسين إلى جانب الأغنياء الذين يقدمون مبالغ كبيرة .

فقال : « إن هذه قد وضعت أكثر من الآخرين كلهم . فالجميع قد أعطوا مما يفيض عنهم ، أما هذه فإنها بالقليل الذي قدمته ، أعطت كل ثروتها » .

وانتهز يسوع هذه الفرصة لتحذير الشعب وأصدقائه من الفريسيين ، بسبب محاولات هؤلاء ضده^(١٠٩) ، فقال :

« إن الفريسيين ومعلمي الشريعة جالسون على كرسي موسى . فراعوا الشرائع التي يأمرونكم بمراعاتها . أما قدوتهم وطريقة تصرفهم فلا تتبعوها ! لأنهم يتداولون شريعة موسى ولكنهم لا يحفظونها . فإنهم يتبعون في أعمالهم هدفاً وحيداً ، وهو التصنع أمام الناس بالمظهر الخارجي للاستقامة .

« تأكلون أموال الأرمال ، وتفرحون باستضافتهن لكم ، بحجة أنكم تصلون معهن .

« أنتم تشبهون القبور المكسدة ، ظاهرها مزين ، والفساد يدب سريعاً في داخلها . تتصنعون مظهر القداسة في ظاهركم ، أما باطنكم فرياء وظلم » .

وأجمل يسوع سمات عديدة أيضاً ، وأنبهم عليها واحدة بعد الأخرى ، عندما كانت الفرصة تسمح لذلك .

وفيما كانوا يتجولون في أرجاء الهيكل المختلفة ، تحدث تلاميذ يسوع عن عظمتهم^(١١٠) . فقال لهم إن لديه خدساً بأن هذه العبادة العظيمة جداً ، وهذه الأبنية ذاتها ستنتهي . مما أذهل أصدقائه ، فلما صاروا وحدهم فيها بعد

(١٠٩) متى ٢٣ .

(١١٠) متى ٢٤ .

على جبل الزيتون المطل على أبنية الهيكل الجميلة ، وعلى قسم كبير من المدينة ، سألوه :

« متى سيحصل ما حدثتنا عنه منذ قليل ؟ وما هي العلامات التي نعرف بها اقتراب مجيء مملكة ماسيا ؟ » .

فأجابهم يسوع :

« هذا الانتظار لماسيا ما يزال يوقع أبناء أمتي في أخطار جسيمة . وبارباطه مع أحكامهم المسبقة الأخرى وتعصبهم الأعمى ، فإنه يهيم سقوطهم الكامل . وهذا الأمل الوهمي يجعلهم العوبة للدجالين المحتالين أو للحالمين فاقدى الرأس .

« فاحذروا أن يستولي عليكم أنتم أيضاً . سيقال غالباً : « إن ماسيا المنتظر هنا ! » ، أو « إنه هناك ! » . وكثيرون سيتحلون اسم ماسيا ، وينصبون أنفسهم ، تحت هذا الاسم ، قادة للتمردات ومؤسسي شيع دينية . وكثيرون سيصنعون نبوءات ومعجزات ، حتى يخدعوا ، بقدر إمكانهم ، الصالحين أنفسهم .

« سيقال غالباً : « هناك في الصحراء سيظهر ماسيا المنتظر ، أو أنه يمكن خفية هنا في الكهف » . فلا تدعوا مثل هذه الكلمات تجذبكم فتجرون وراءهم . إن تخمينات وشائعات مماثلة ستسمح بقيام تمردات سياسية وانشقاقات دينية . فيحصل تحزب ، ويروح هذا التحزب ، يحصل تباغض ويفضح واحد الآخر . ويعتقد البعض أن لهم الحق في التضحية بأقدس واجبات الانسانية ، في سبيل هذا الحماس الأعمى لأسماء وكلمات .

« وبعد ذلك خراب الدولة ، وانحلال الرباطات الاجتماعية والانسانية ، ثم الوباء والمجاعة ، مما يوقع هذه البلدان الشقية بسهولة فريسة للأعداء الخارجيين . فويل للحوامل والرضع آنذاك .

« لا تسمحوا لأنفسكم بالتحزب في هذه الاضطرابات . فسيصاب

الكثيرون بعدوى هذا الروح الخداع ، دون أن يعلموا كيف حصل ذلك . وكثيرون سيستولي عليهم هذا الاعصار ، فيبتعدون في كل خطوة عن روح الاعتدال ، ويرون أنفسهم في النهاية متورطين في الجرائم وفي خراب حزبهم ، دون أن يكون بإمكانهم التراجع .

« اهربوا ، وتجنبوا قدر استطاعتكم مسرح الفساد وفقدان الرحمة هذا ! تحرروا من كل علاقات القربى ، ولا تؤجلوا ذلك متذرعين بتدبير هذا الأمر أو ذاك ، أو بإنقاذه . ومهما حصل ، ابقوا مخلصين بقوة لمبادئكم . عندما يهاجمكم روح التحزب ويؤلمكم ، بشروا بالاعتدال ، وانصحوا بالمحبة والسلام ، ولا تهتموا بأي من هذه الأحزاب الدينية والسياسية .

« لا تظنوا أن تصميم الإله يتم بمثل هذه التجمعات الفوضوية ، أو في جماعات تحكم باسم شخص أو باسم إيمانه . هذا التصميم ليس وفقاً على شعب واحد ، ولا على إيمان واحد ، ولكنه يشمل الجنس البشري كله بمحبة متجردة . يمكنكم القول أن هذا التصميم قد تحقق ، عندما تصبح خدمة العقل والفضيلة هي المسلّم بها والممارسة في كل أنحاء الأرض ، دون عبادة الأسماء والكلمات .

« ما يحفظكم من روح الانقسام ، ويجعلكم دائماً صامدين وشجعاناً ، هو الرؤية الثابتة لأمل الانسانية هذا ، وليس الأمل الوطني الباطل لليهود .

« فليستند هدوءكم وشجاعتكم ، في كل هذه الانقسامات ، إلى فضيلة غير مشوهة . كونوا متيقظين حتى لا يدخل قلوبكم خلسة إحساس بالاكتماء^(١١١) ، مزيف وجبان ، إحساس يستند إلى تعلق بالصيغ الدينية ، أو إلى عبادة كلامية ومراعاة مفرطة لطقوس أية كنيسة .

« فسيكون هذا ، مثل عشر عذارى حملن مصابيحهن وخرجن لانتظار

(١١١) يوجد في نص روك عبارة موضوعة بين قوسين تكرر بطريقة مختلفة تماماً ، العبارة السابقة .

العريس حتى يأخذ عروسه إلى منزله (١١٢). وكانت خمس منهن عاقلات قد تزودن بالزيت ، أما الخمس الأخريات الجاهلات فتهاملن في ذلك . وبعد انتظار طويل ، جاء العريس متأخراً في الليل ، فأردن الذهاب أمامه . وكانت اللواتي ليس لديهن زيت قد أسرعن إلى السوق لشرائه ، لأن الأخريات لم يستطعن إعارتهن منه ، فهو بالكاد يكفيهن .

« وفي أثناء غيابهن حضر العريس . فرافقته العذارى الخمس العاقلات إلى المنزل من أجل مأدبة العرس . أما الأخريات اللواتي اهتممن بالدعوة ، ولكنهن تهاملن في ما هو أساسي ، فأقصين عن المأدبة » .

« وكذلك أنتم ، فلا تعتقدوا أنه يكفي أن تنضموا إلى دين ما إذا نسيتم ما هو أكثر ضرورة ، أي ممارسة الفضيلة . لا تتوهموا أنه يكفي أن تسرعوا إلى جمع المبادئ عندما تكونون في ضيق ، أو عندما تقتربون من الموت . لا تفكروا في التزيّن بالمزايا الغريبة ، التي يعتقد كل منكم أنها صالحة له ، دون أن يستطيع نقلها إلى الآخرين ، فلييمانكم بالكنيسة وحدها أو بأملاككم الخدّاع في مزايا الآخرين ، لن تستمروا أمام قاضي العالم القدّوس .

« إنني أشبه حكمه بحكم الملك الذي جمع شعبه وفصل الصالحين عن الأشرار كما يفصل الراعي الكباش عن الحملان . وقال للصالحين :

« اقتربوا يا أصدقائي وابتهجوا بالسعادة التي تستحقونها . لأنني جعت فأطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني . عندما كنت غريباً بينكم استقبلتموني ؛ عندما كنت عارياً كسوتوني ؛ عندما كنت مريضاً اعتنيت بي ؛ وعندما سجنتموني » .

« فسألوه متعجبين :

« يا سيد ، متى رأيناك جائعاً أو عطشان حتى نطعمك أو نسقيك ،

(١١٢) متى ٢٥ .

ومتى رأيناك غريباً أو مريضاً أو في السجن حتى نكسوك أو نستقبلك أو نزورك ؟ » .

« ولكن الملك أجابهم :

« كل ما فعلتموه إلى أحد أصغر إخوتي ، واخوتكم ، فهذا ما أجازيكم عليه ، كما لو أنكم فعلتموه لي أنا » .

« وقال للآخرين :

« ابتعدوا عني وتلقوا جزاء عملكم ، فعندما جعت أو عطشت لم تطعموني ولم تسقوني . وعندما كنت عارياً أو مريضاً أو في السجن ، لم تعتنوا بي » .

« فقال له هؤلاء أيضاً :

« متى رأيناك جائعاً أو عطشان أو عارياً أو مريضاً أو في السجن ، حتى يكون بإمكاننا أن نقدم لك أية خدمة ؟ » .

« فأجابهم الملك الجواب نفسه :

« كل ما لم تفعلوه لأحد الصغار ، فسأجازيكم عليه ، كما لو أنكم لم تفعلوه لي أنا » .

« وهكذا أيضاً سيلفظ قاضي العالم حكم الادانة على الذين يعبدون الإله من أطراف شفاههم ، آخذين مظاهر التقوى ، دون أن يعبدوه في صورته التي هي الانسانية » .

وكان يسوع يقيم في العادة أثناء النهار في مباني الهيكل وساحاته ، وفي الليل خارج المدينة ، على جبل الزيتون .

أما المجمع الكبير فلم يجرؤ على تنفيذ قراره بالقبض على يسوع ، أمام الشعب . ولهذا السبب لم يجدوا أفضل من العرض الذي قدمه لهم يهوذا ،

أحد أصدقاء يسوع الاثني عشر الحميمين ، بأن يدهم على مكان إقامة يسوع الليلية ، ويساعدهم في القبض عليه خفية ، مقابل مبلغ من المال .

ويبدو أن الطمع كان الهوى الأساسي ليهودا . وهو طمع لم يدع مكاناً لأي مشاعر سامية في علاقته بيسوع ، لأنه كان الدافع الأساسي ليهودا منذ أن صار تابعاً ليسوع ، وظن أن بإمكانه تحقيقه عندما يؤسس يسوع مملكته الماسياوية . ولما بدأ يتيقن أن هدف يسوع ليس تأسيس مثل هذه المملكة ، وأدرك أن أمله سيخيب ، سعى إلى الحصول على أكبر منفعة ممكنة من صداقته ليسوع ، فخانه .

وحسب عادة اليهود ، أعدّ يسوع عشاءاً فصيحاً في اورشليم ، وكان لحم الغنم الطعام الأمثل فيه . وهو المساء الأخير الذي أمضاه مع أصدقائه ، فكرسه بكامله من أجل أن يترك فيهم انطباعاً عميقاً .

ففي بداية العشاء ، نهض يسوع وخلع رداءه ، وشمر عن ساقيه ، ثم تناول قماشاً وغسل أقدام أصدقائه (عمل يقوم به الخدم في العادة) (١١٣) . ورفض بطرس أن يغسل يسوع قدميه ، فقال له إنه سيعلم السبب للحال . وبعد انتهائه قال :

« لقد رأيتم ما فعلت . أنا ، الذي تدعونني معلماً ، غسلت أقدامكم . لقد أردت أن أعطيكم مثلاً على الطريقة التي يجب أن تتصرفوا بحسبها فيما بينكم . الأمراء يحبون السلطة (١١٤) ، ولهذا فإنهم يدعون أنفسهم محسنين إلى الجنس البشري . فلا تكونوا مثلهم . لا يسع أي منكم إلى التسلط على الآخرين ، ولا يبتغ أحدكم أن يتجاوز الآخرين بخفة ؛ ولكن فليكن كل منكم لطيفاً وخدمياً ، كما بين الأصدقاء ، وعندما يؤدي أية

(١١٣) يوحنا ١٣ .

(١١٤) لوقا ٢٢ : ٢٥ .

خدمة ، فلا يقدمها وكأنها صدقة أو تنازل منه للآخرين . إنكم تعرفون ذلك ، فطوبى لكم إذا فعلتموه أيضاً !

« أنا لا أقول هذا لكم جميعاً ، بل يمكنني أن أستعمل هنا ما قيل في مكان ما : « واحد من الذين يأكلون معي سيرفع قدمه عليّ » . لأن واحداً منكم سيسلمني » .

أحزنت هذه الفكرة يسوع ، وكذّرت أصدقاءه أيضاً . وكان يوحنا قريباً منه ، فسأله بهدوء عمّن يكون ؟ فقال له يسوع :

« إنه الذي أقدم إليه هذه القطعة من الخبز » . ثم مال بها إلى يهودا ، قائلاً :

« ما تريد أن تفعله ، افعله بسرعة » .

ولم يفهم أحد من الآخرين معنى هذا .

ظنوا أنه يتعلق بمهمة ما ، لأن يهودا كان يتولّى صندوق الجماعة . وتركهم يهودا بسرعة خشية أن يوبخه يسوع أمام الجميع (إذ رأى أن قصده ليس خافياً على يسوع) ، أو خوفاً من أن يتزعزع تصميمه إذا لبث هناك وقتاً طويلاً .

وحينئذٍ تابع يسوع :

« إن صديقكم يا أبنائي الأعزاء ، سيتمم مصيره قريباً . وسيستقبله أبو البشر في مساكن غبطته . قليل من الوقت أيضاً ، وسأرفع عنكم . وعهدي لكم وصية واحدة أتركها لكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً مقتدين بحبتي لكم . ولن توصفوا بأنكم أصدقاؤني إلا بهذه المحبة المتبادلة .

فسأله بطرس :

« إلى أين تنوي الذهاب ؟ أتريد أن تتركنا ؟ » .

فقال يسوع : « لا تستطيع أن ترافقني في الطريق التي سأسلكها » .

فأجابه بطرس : « لماذا لا أستطيع أن أتبعك ، إنني مستعد لبذل حياتي من أجل ذلك » !

فقال يسوع : « أتريد أن توضّح بحياتك في سبيلي ؟ أنا أعلم جيداً أنك لم تمتلك القوة لفعل ذلك بعد . ويمكن أن توضع تحت التجربة قبل أن يطلع النهار الجديد » .

« لا تنذهلوا لأنني سأفصل عنكم . احترموا الروح الذي يقيم فيكم ، وتعلموا منه معرفة مشيئة الإله . فبهذا الروح وحده يمكن اعتباركم متسبين إلى الإله ومن سلالته . وهو وحده الذي يفتح أمامكم الطريق التي تقود إلى الألوهة والحقيقة . اصغوا إلى هذا الصوت الأصيل^(١١٥) . صحيح أن أشخاصنا تختلف وتنفصل لكن جوهرنا واحد . ولنا بعيدين واحدنا عن الآخر .

« حتى الآن كنت معلمكم ، وحضوري هو الذي وجّه أعمالكم . إنني أغادركم ، ولكنني لا أترككم كالأيّام . إنني أذهب ، لكنني أترك لكم موجّهاً في داخلكم . فقد أيقظت بذرة الخير التي أودعها العقل فيكم ، وذكرى تعليمي ومحبي لكم . حافظوا على روح الحق والفضيلة هذا راسخاً فيكم ، فهو الروح الذي لا يُظهر البشر أي احترام له ، لمجرد أنهم لا يعرفونه ولا يبحثون عنه في ذواتهم .

« لقد صرتم أناساً يمكن تركهم لذواتهم ، دونما حاجة إلى وصاية . فلتلدلكم خلقيتكم المتطورة على الطريق عندما لا أكون معكم . كرّموا ذكراي ، ومحبي لكم ، بسلوككم طريق الاستقامة ، الطريق الذي قدتكم فيه . روح الفضيلة القديس سيحفظكم من الزلل في خطواتكم ، وسيعلمكم بكمال كل ما لا تحتملون معرفته الآن ، وسيذكركم بكثير من الأشياء التي لم تفهموها بعد ، بإعطائها مدلولاً .

(١١٥) وردت هذه الجملة في نص روك بعد جملة (احترموا الروح الذي يقيم فيكم) .

« إنني أذهب وأمنحكم البركة ، ليست التحيّة التي نلقيها دون أن ترتبط بأي مدلول ، بل تلك التي أرغب أن تكون غنية بالثمار . وحتى بالنسبة إليكم ، من الأفضل أن أترككم ، فلا يمكن أن تحصلوا على الاستقلال وتعلموا كيف تقودون أنفسكم إلا بتجربتكم ونشاطكم الخاصين . يجب ألا يملأكم ذهابي بالحزن ، بل بالفرح ، لأنني أبدأ طريقاً سامياً في عوالم أفضل ، حيث الروح يدخل إلى موطنه ، مملكة اللامتناهي ، ويرتفع بانخطاف سريع ، وأكثر حرية ، نحو ينبوع الأول لكل خير .

« لقد صبوت إلى السعادة بتناولي هذا الطعام معكم . فتداولوا الصحون والأكواب ولنجدد هنا عهد الصداقة » .

وحينئذٍ ، وكما تنشأ عند العرب في أيامنا رباطات الصداقة السرمدية بتناول الطعام من خبزة واحدة وكأس واحدة ، قسم يسوع الخبز بينهم ، على عادة الشرقيين ، وقال :

« عندما تأكلون معاً في حلقة الأصدقاء ، تذكروا أيضاً صديقكم ومعلمكم القديم . وكما أن الفصح بالنسبة إليكم هو رمز الفطير الذي تناوله آباؤكم في مصر ، والدّم ذكرى دم الذبائح التي سُفكت ، بمناسبة الميثاق الذي به (لوقا ١١ ، ٢٤ : ٨) عقد موسى عهداً بين يهوه وشعبه ، فكذلك تذكروا في المستقبل عند رؤيتكم الخبز جسداً صديقكم ومعلمكم المقدم ذبيحة ، وعند رؤية كأس الخمر ، اذكروا دمه المسفوك !

« احفظوني في ذاكرتكم ، أنا الذي أعطيت حياتي من أجلكم ! ولتجعلكم ذكراي وقدوتي ، أقوياء في الفضيلة . إنني أراكم حولي كما لو كنتم براعم كرمة الحقل ، التي تتغذى منها فتحمل الثمار ، ثم تنفصل عنها فتتضج الخير بقواها الحية الخاصة بها .

« أحبوا بعضكم بعضاً ، وأحبوا كل البشر كما أحببتكم أنا . إنني أقدم حياتي من أجل خير أصدقائي العظيم ، إثباتاً لمحبي . لا أدعوكم تلاميذ أو طلاباً ، فهؤلاء ينفذون إرادة مدرسيهم ، وغالباً دون معرفة السبب

الذي من أجله يجب أن يتصرفوا على هذا النحو . أنتم بالغون فكونوا مستقلين واستمتعوا بالحرية الكامنة في إرادتكم الخاصة . ستحملون ثماراً بقوة فضيلتكم الخاصة ، إذا كان روح المحبة ، أي القوة التي تحيينا أنا وأنتم ، هو نفسه .

عندما يضطهدونكم ويسيثون إليكم ، تذكروا قدوتي ، وأن مصيري ومصير آلاف آخرين لم يكن أفضل . إذا اعتنقتم الشرور والأحكام المسبقة السائدة ، تجدون الكثير من الأصدقاء . ولكنكم ستبغضون لأنكم أصدقاء الخير . حياة الانسان المستقيم تبكيت دائم للشرير ، الذي يشعر بها فتغيظه . وعندما يستنفد كل حجة لاضطهاد رجل الخير الذي لا يحمل أحكاماً مسبقة ، فإنه يجعل من الأحكام المسبقة والاضطهاد والشرور قضية الله ، ومن اضطهاد البشر ، بسبب كرهه الخير ، خدماتٍ للألوهة .

« ولكن روح الفضيلة ، الشبيه بشعاع آتٍ من العوالم الفضلى ، سيحييكم ، ويرفعكم إلى ما فوق غايات البشر الحقيرة والفاسقة . أقول لكم ذلك مسبقاً حتى لا يفاجئكم . وكما أن ضيق المرأة التي تلد يتحول إلى فرح عندما تضع كائناً بشرياً في العالم ، فكذلك البؤس الذي تنتظرونه سيتحول إلى سعادة قصوى » .

ثم رفع يسوع عينيه نحو السماء وقال :

« يا أبت لقد أتت ساعتي . ساعة إظهار الروح النابع من لا تناهيك في كل كرامته ، وساعة العودة إليك . مصير هذا الروح هو الخلود والارتفاع فوق كل ما له بداية ونهاية ، فوق كل ما هو محدود . لقد أكملت مصيري الأرضي ، في أن أعرفك أنت يا أبت ، وأن أعرف القرابة بين روحي وروحك ، وأن أتشرف بإخلاصي له ، وأن أجعل البشر أكثر نبلاً بإيقاظ الشعور بهذه الكرامة . محبتي لك زودتني بأصدقاء عرفوا أنني لم أشأ أن أفرض على البشر أموراً غريبة أو تعسفية ، ولكنني علمتهم ناموسك ، ذلك الناموس

المقيم هادئاً في جميع القلوب ، والذي لا ينتكر^(١١٦) له سوى البشر .

« لم يكن قصدي أن أحصل على المجد بواسطة أمور فريدة وخارقة ، بل أن أعيد الاحترام المفقود للانسانية التي أضاعت اعتبارها . موضوع فخري هو الخاصية الكلية للكائنات التي وهبت العقل ، وتنظيم الفضيلة المعطاة للجميع ! .

« أيها الكائن المطلق ، احفظهم حتى يكون الناموس الأسمى الذي فيهم ، الناموس المسيطر عليهم ، هو حب الخير . وهكذا يكونون واحداً ، ويبقون متحدين بك وبى . إنني آتي إليك وأوجه هذه الصلاة : فليدخل الاستعداد الشجاع الذي يحييني إليهم أيضاً . لقد علمتهم وحيك ، فحفظوه ، لذلك أبغضهم العالم ، كما أبغضني أنا الذي يطيعك !

« أنا لا أطلب منك أن ترفعهم من هذا العالم . فلا يعرف أحد التقدم بطلب من هذا النوع أمام عرشك . ولكن قدسهم بحقيقتك ، فإنها لا تشع إلا بناموسك . لقد تركت بين أيديهم الدعوة العلوية التي دعوتني إليها : تدريب البشر على الفضيلة ، إنها الدعوة التي تبعثها . فليتمموها بدورهم ، وليقيموا أصدقاء لا يحثون أمام أي صنم ، ولا يبنون وحدتهم على كلمات أو عقائد ، بل على الفضيلة والرغبة في أن يقتربوا منك أيها القدوس ! » .

ونفضت الجماعة بعد هذه المحادثة ، وتركت أورشليم كالمعتاد (كان الليل قد حل) فعبروا ساقية قدرون في حقل يدعى الجسمانية ، بالقرب من جبل الزيتون^(١١٧) . وكان يهوذا يعرف مكان الاقامة الليلية هذا ، لأنه كان غالباً مع يسوع .

وقال يسوع لتلاميذه أن يبقوا في المكان ، أما هو فذهب مع ثلاثة منهم إلى مكان أكثر انفراداً حتى يستسلم لأفكاره . وهنا رجعت الطبيعة برهة إلى

(١١٦) نول : (ينتكره) . روك : (يبعده) .

(١١٧) لوقا ٢٢ : ٣٩ وما يقابلها .

حقوقها . واستولت على يسوع في وحدة الليل فكرة خيانة صديقه وظلم أعدائه وقساوة المصير الذي ينتظره ، فزعزعته وجزع منها . فطلب من تلاميذه أن يبقوا إلى جانبه ويسهروا معه . وكان يذهب من مكان إلى آخر وهو قلق ، ويتكلم معهم من حين إلى آخر ، ويوقظهم عندما ينامون ، ويعتزل من حين إلى آخر ، ويصلي أحياناً :

« يا أبت ، إن أمكن فأبعد عني كأس العذاب المرة التي تنتظرنني . ولكن فلتكن مشيئتك لا مشيئتي . وإذا لم يكن ممكناً أن أعفى من هذه الساعة . فإني أخضع لمشيئتك » .

وسال عرقه في نقط كبيرة .

ولما عاد مجدداً إلى جانب تلاميذه ، وحثهم على السهر ، رأى أناساً قادمين ، فنادى تلاميذه :

« هيا ، انهضوا ، فإن الذي خانني يقترب » .

وحينئذٍ اقترب يهوذا ومعه مسلحون يحملون مشاعل . فاستعاد يسوع رباطة جأشه الراسخة ، وتقدم للقائهم وسألهم :

« عمّن تبحثون ؟ » .

فقالوا : « عن يسوع الناصري » .

فقال : « أنا هو » .

فلم يعرفوا ماذا يفعلون ، خشية أن يكونوا قد أخطأوا . فسألهم ثانية ، وأجابهم كما في المرة الأولى ، وأضاف : « إذا كنتم تطلبونني ، فاتركوا أصدقائي » .

وهنا اقترب يهوذا ، وأشار إلى مرافقيه بالاشارة المتفق عليها ليعرفوا يسوع ، وهي أن يقول : « السلام عليك يا معلم ! » وأن يقبل يسوع في الوقت نفسه . فأجابه يسوع : « أقبلة تخونني أيها الصديق ؟ » .

وحينئذٍ أمسكه الجنود . فلما رأى بطرس ذلك ، استل سيفه وراح يضرب به يمينه ويسره ، فقطع أذن عبد عظيم الأخبار . فقال له يسوع أن يبقى هادئاً : « دُع هذا » ، واحترم المصير الذي هيأته لي الألوهة » .

وهرب أصدقاء يسوع الآخرون وتفرقوا لما رأوا أن رجال العصابة التي قبضت على يسوع قد أوثقوه ثم اقتادوه ، باستثناء شاب استيقظ مذعوراً ولم يكن عليه سوى رداء ، فأراد أن يتبعه ، لكن الجنود أمسكوه ، ولم ينقذه إلا أن تخلص منهم تاركاً لهم الرداء . وفيما هم سائرون قال يسوع لحراسه :

« لقد أتيتم إلي بالسلاح ، حتى تمسكونني وكأنني لص . ولكنني كنت بينكم كل يوم ، أجلس مع الشعب في الهيكل ، ولم تقبضوا علي . ولكن نصف الليل ساعدتكم والظلمة عنصركم » .

واقب يسوع أولاً إلى حنانيا ، عظيم الأخبار السابق ، وحي قيافا . ثم أخذوه إلى قيافا ، وكان عظيم الأخبار في تلك السنة . وهناك كان المجمع الكبير كله بانتظار يسوع ، لأن قيافا كان قد اقنع اعضاءه أن من الواجب التضحية بانسان واحد من أجل خلاص الشعب كله .

وتبع بطرس الحراس من بعيد ، وما كان ليجرؤ على الدخول إلى الدار نفسها ، لولا أن يوحنا يعرف عظيم الأخبار جيداً ويدخل بحرية إلى بيته ، فتدخل عند البوابة كي تأذن لبطرس بالدخول . فقالت لبطرس حالما رآته :

« أأنت واحد من أتباع هذا الرجل ؟ » .

فأنكر بطرس ذلك دون تردد ، وجلس قرب النار بين الحجاب والخدم ليستدفيء مثلهم .

واحضروا يسوع أمام عظيم الأخبار ، فسأله أسئلة عديدة تتعلق بمذهبه التعليمي وتلاميذه . فأجابه يسوع :

« لقد علّمت العالم علانية . علّمت في الهيكل والمجامع حيث يذهب

اليهود كلهم عادة . وليست لدي أية مبادئ خفية . فلماذا تسألني إذا ؟
اسأل الذين علمتهم والذين سمعوني ، فيمكنهم جميعاً أن يقولوا لك ما تسأل
عنه .

وبدت هذه الاجابة وقحة في نظر أحد الحراس . فلطم يسوع وقال
له :

« أهكذا تجيب عظيم الأخبار ؟ » . فقال يسوع بلطف :

« إذا كنت قد أخطأت في الاجابة ، فدلّني على خطائي ، وإذا كنت قد
أحسنّت الاجابة فلماذا تضربني ؟ » (١١٨) .

ثم استدعي الكثير من الشهود ، ليؤدّوا شهادتهم ضد يسوع . ولكن
الأخبار لم يستطيعوا استخدامها ، إمّا لأنها غير دقيقة ، وإمّا لأنها لا تتوافق .
وأخيراً حضر بعض الأشخاص وأكدوا أنهم سمعوا يسوع يتكلم على الهيكل
بوقاحة . ولكن هذه الشهادات لم تتوافق تماماً في تعابيرها .

ولم يجب يسوع عن كل هذا إلّا بالصمت . وأخيراً فقد عظيم الأخبار
صبره ، فاقترّب من يسوع وقال :

« ألا تجيب بشيء على هذه الاتهامات ؟ استحلفك إذا بالله الحي أن
تقول لنا إذا كنت قديساً ، أو ابناً للإله ؟ » .

فأجاب يسوع : « نعم ، أنا كذلك . وهذا الرجل المحتقر الذي كرّس
نفسه للألوهة والفضيلة ، سترونه يوماً مرتدياً البهاء ومرتفعاً فوق النجوم » .

فمزّق عظيم الأخبار ثيابه وصرخ :

(١١٨) حسب يوحنا ١٨ : ٢٤ يبدو أن هذا الأمر حصل في قصر حنايا . ولكن إذا كان
المجمع الكبير قد انعقد عند قيافا ، وإذا كان الاستجواب الحقيقي قد حصل هنا ،
فإن المكان الذي أنكر فيه بطرس يسوع لا يكون نفسه . فلا يقال (ἀποκρίσεις) في
الجمع إلّا عند قيافا (ملاحظة لهيجل)

« لقد جذّفت على الله ! فما حاجتنا إلى شهادات أخرى ؟ لقد سمعتموه
يشهد على نفسه . فما رأيكم ؟ » .

فأبدوا رأيهم قائلين : « إنه يستحق الموت » .

وكان هذا الموقف بمثابة اشارة للحراس ، فراحوا يشتمون يسوع
ويحرقونه ، إذ أنه بقي بين أيديهم بعد ارفضاض المجمع الكبير لبضع ساعات
قبل التثامه مجدداً في وقت مبكر من الغد .

وفي هذه الأثناء كان بطرس ما يزال جالساً قرب النار (١١٩) فعرفته امرأة
أخرى من خدم عظيم الأخبار ، فقالت لمن هناك :

« لا ريب أن هذا أيضاً من رفاق السجين ! » .

فنفى بطرس ذلك نفياً باتاً . لكن خادماً لعظيم الأخبار ، وهو قريب
الذي جرحه بطرس قبل عدة ساعات ، قال :

« ألم تكن قرب يسوع في البستان ؟ » واقتنع الآخرون بذلك لأن لهجته
تدل على أنه جليلي .

وفي غمرة هذه الظروف التي تشهد كلها ضد بطرس ، نسي نفسه
بسبب الارتباك ، وجعله الخوف يصرّح علناً أنه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ،
وأنه لا يعرف مطلقاً الانسان الذي يعتبرونه صديقه .

وحينئذ أخذ الديك يصيح معلناً أن النهار بدأ يتكشف . واقتيد يسوع
من ذلك المكان في الوقت الذي كان بطرس ينكره علناً . فالتفت يسوع
نحوه ، وألقى عليه نظرة ، فدخلت إلى أعماقه ، واحس بدنائة تصرفه ،
وشعر كم كان يسوع محقاً ، أثناء محادثته لهم مساءً ، في شكّه بأن الوفاء الذي
تباهى به بطرس لن يصمد في الامتحان . فابتعد بسرعة وذرف دموعاً مرّة
وهو نادم وخجل من نفسه .

(١١٩) مرقس ١٤ : ٦٦ وما يليها .

أما يهوذا الخائن ، فلما رأى أن الأمور أخذت مجرى بعيداً ، وأن يسوع سيُحكم عليه بالموت ، ندم على فعلته . فأعاد المال (ثلاثين ديناراً) إلى الأحرار ، وقال :

« لقد أسأت التصرف بتسليمكم بريئاً » .

فأجابوه أن هذا كان عمله ، وأن فعلته لا تهمهم . فرمى يهوذا المال في صندوق الهيكل ثم شنق نفسه .

وتردّد الأحرار في إضافة المبلغ إلى أموال الهيكل ، لأنه ثمن دم ، فاشترى به حقلاً ، وقرروا جعله مقبرة للغرباء .

ومضت الساعات الباقية من الليل ، فالتأم المجمع الكبير مجدداً . وحكم على يسوع بأنه يستحق الموت . ولكن لم يكن للمجمع الحق باقرار الحكم ولا بتنفيذه ، لذلك ذهبوا كلهم ومعهم يسوع إلى بيلاطس ، الحاكم الروماني لتلك المقاطعة ، حتى يسلموه يسوع ، فيتجنبون بذلك انفجار أي عصيان شعبي إذا بقي يسوع بين أيديهم^(١٢٠) .

ولم يدخلوا القصر ، حتى لا يتنجسوا ، لأن ذلك اليوم كان من أيام العيد . فخرج بيلاطس إلى الرواق وسألهم :

« بأية جريمة تتهمون هذا الرجل ، حتى تطلبوا ادانته ؟ » .

فأجاب الأحرار : « لو لم يكن مجرمًا لما اسلمناه إليك » .

فأجاب بيلاطس :

« إذا إدّعوا عليه أنتم ، وحاكموه بحسب شرائعكم » .

فأجابوا : « لسنا مخولين أن نقرّر أحكاماً بالموت » .

(١٢٠) وضع نول هذه الفقرة قبل الفقرتين السابقتين . ويبدو لي أن مكانها هو حيث وضعها روك ، أي في مكانها الحالي .

فلما سمع بيلاطس أن الأمر يتعلق بجريمة يمكن أن تؤدي إلى حكم بالموت ، لم يعد باستطاعته رفض محاكمة يسوع ، فاستعرض تهم المجمع ضده . وكان المجمع اليهودي يعلم جيداً أنه لن يتمكن من أخذ حكم من بيلاطس باعدام يسوع ، إذا اتهموه بأنه قد صرّح أنه ابن الإله ، وهو أمر يعدّه اليهود تجديفاً على الإله ، ويعتبره المجمع جريمة تستحق الموت ، فاتهموا يسوع بأنه يضلّل الشعب ، ويجعله غير مبالٍ بدستور الدولة ، وهو ما يظهر من تحريضه على عدم دفع الجزية للامبراطور . واتهموه أيضاً بالادعاء أنه ملك .

وعاد بيلاطس إلى القصر بعد أن سمع هذه الاتهامات ، فدعى يسوع وسأله :

« أتدّعي حقاً أنك ملك اليهود ؟ » .

فسأله يسوع بدوره :

« هل ساورتك الفكرة بأنني أدّعي مثل هذا الأمر من ذاتك ، أو أنك تسألني عنه لأن آخرين يشكونني به ؟ » .

فأجابه بيلاطس :

« وهل أنا يهودي ، حتى أنتظر من نفسي ملكاً على بلادكم ؟ إن شعبك والأحرار هم الذين يتهمونك . فماذا فعلت حتى دفعتهم إلى ذلك ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إنهم يتهمونني بانتحال مملكة . ولكن هذه المملكة ليس لها المدلول الذي يُلصق في العادة بهذه الفكرة . ولو كانت كذلك لكان لي رعايا وأتباع يحاربون من أجلي حتى لا أقع في أيدي اليهود » .

فأجاب بيلاطس :

« إذا فأنت تدّعي أنك ملك ، لأنك تتكلم على مملكة » .

فأجاب يسوع :

« إذا أردت أن تسميها كذلك ، فليكن . لقد آمنت أنني جئت إلى العالم بمهمة تعليم الحقيقة ، والأتيان لها بأنصار . ومن يحب الحقيقة يستمع لصوتي » .

فظهر بيلاطس بمظهر انسان هذا العالم الذي يحكم بأفق ضيق على الأشياء الجدية تماماً ، فقال وهو يتسهم : « وما هي الحقيقة ؟ » .

لا شك أن بيلاطس قد اعتبر يسوع حالماً يكرّس نفسه من أجل كلمة أو فكرة مجردة ، وهي أمور غير مهمة بالنسبة إلى فكر بيلاطس ، فاعتبر أن الشأن كله مسألة تهم الدين اليهودي وحده ، ولا تتسبب بانتهاك القوانين المدنية ، ولا تشكل خطراً على أمن الدولة . فترك يسوع وخرج قائلاً لليهود أنه لم يتبين أية جريمة في هذا الانسان .

فتابع هؤلاء اتهاماتهم قائلين أن يسوع يثير بتعليمه المتاعب في كل البلاد من الجليل حتى اورشليم .

ولفت انتباه بيلاطس قولهم إن الجليل هو المكان الذي بدأ فيه يسوع تعليمه ، فاستعلم عما إذا كان يسوع جليلاً . فلما تأكد له ذلك ، بدأ سعيداً بالتخلص من هذا العمل المزعج ، لأن يسوع بصفته جليلاً يتبع السلطة القضائية هيروودوس أمير الجليل . فأرسله إليه ، وكان في اورشليم بمناسبة العيد .

وسرّ هيروودوس كثيراً لم رأى يسوع ، فقد كان يتمنى منذ زمن بعيد أن يراه ، لما يسمعه عنه . وكان يأمل أن يراه وهو ينجز أموراً خارقة .

فسأله مسائل كثيرة . وقام الأحرار ومرافقوهم يكررون اتهاماتهم أمامه . فلم يجب يسوع بشيء على كل ذلك . وبقي هادئاً أيضاً عندما

أوسعه هيروودوس وجلساؤه سخرية ، ولما ألبسوه أخيراً ثوباً يرمز إلى رتبة الامارة .

ولم يعرف هيروودوس ماذا يفعل به ، فقد بدا له أن يسوع موضوع للسخرية أكثر من كونه مذنباً يجب أن يُعاقب ، فأعاده إلى بيلاطس . وكان لهذه الالتفاتة من بيلاطس ، باحترام حق هيروودوس في السلطة القضائية على يسوع ، بصفته جليلاً ، تأثير على إعادة الصداقة بينهما ، وكانت قد انقطعت قبلاً .

ووجد بيلاطس نفسه مجدداً في حيرة . فجمع كبار الأحرار وأعضاء المجمع وأعلمهم أنهم قد اتهموا هذا الرجل أمامه بالتحريض على الشعب ، وأنه وهيروودوس لم يجد فيه أي شيء يدل على استحقيقه عقوبة الموت ، ولذلك لا يمكنه أن يفعل به أكثر من أن يجلده ثم يطلقه حراً .

ولم يرض اليهود بهذه النتيجة ، وأصرّوا على اتخاذ قرار باعدامه . أما بيلاطس الذي أعجب بصمت يسوع أثناء هذه المشاهدات كلها ، فلم يرض لنفسه أن يُستخدم أداة لتعصب اليهود الديني ، بأن يضحي لهم بيسوع ، فوجد مخرجاً آخر ، وخاصة أن امرأته كانت قد أرسلت إليه رسولاً يطلب منه الاهتمام بيسوع . إذ كانت العادة أن تطلق السلطة الرومانية في عيد الفصح سراح أحد السجناء اليهود . وكان ثمة يهودي آخر في السجن يدعى باراباس ، اتهمه اليهود باللصوصية والقتل .

وظن بيلاطس أن اليهود لن يهملوا ممارسة هذه العادة ، وأنهم سيطلبون الحرية ليسوع دون ذلك المجرم . فخيرهم بين الاثنين ، أي بين باراباس وملك اليهود ، كما سمى يسوع بسخرية .

فحرّض الأحرار الشعب الحاضر على طلب الافراج عن باراباس والموت ليسوع . ولما أعاد بيلاطس سؤاله عمّن قرّروا أن يفرج عنه ، صرخوا : « باراباس ! » .

فصاح بيلاطس مستاءً : « وماذا أفعل إذا بيسوع ؟ » .

فصرخوا : « اصلبه » .

فسألهم بيلاطس مجدداً : « وما هو الشر الذي فعله ؟ » .

فصاحوا بقوة : « اصلبه ، اصلبه ! » .

وحينئذٍ أمر بيلاطس بجلد يسوع ، وضمفر الجنود اكليلاً من الشوك ، ووضعوه على رأسه ، وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان^(١٢١) ، وصاحوا وهم يضربونه : « السلام عليك يا ملك اليهود ! » .

وظن بيلاطس أن هيجانهم قد سكن حينئذٍ ، فقال لهم :

« اكرر لكم أنني لا أجد فيه أي ذنب » .

ثم أخرجه وهو مرتدٍ ذلك اللباس وقال : « انظروا إليه ، واملاؤا أعينكم من هذا المنظر ! » .

لكن المنظر لم يلين قلوبهم . وطلبوا موته بضجة كبيرة .

فصاح بيلاطس وهو أكثر انزعاجاً : « خذوه إذا واصلبوه أنتم ، فإني لم أجده مذنباً » .

فأجاب اليهود : « إنه يستحق الموت حسب شرائعنا ، لأنه يدّعي أنه ابن للاله » .

وتصور بيلاطس أن الأمر يتعلق بابنٍ لله حسب التصور الروماني ، فساورته الشكوك أكثر فأكثر ، وسأل يسوع :

« من أين أنت بالحقيقة ؟ » .

(١٢١) (. . .) وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان . . .) لا توجد في نص روك .

ولكن يسوع لم يجبه .

فقال بيلاطس : « أفلا تحبيني أنا أيضاً ؟ أتعرف أن حياتك وموتك وقف عليّ وحدي ؟ » .

فأجاب يسوع : « هذا صحيح إذا كان حياتي أو موتي موافقين لتصميم العناية الإلهية . ولكن هذا لا يقلل من خطأ الذين أسلموني » .

وأخذ بيلاطس يميل أكثر فأكثر إلى جانب يسوع ، وعزم على إطلاقه . فلما رأى اليهود ذلك ، لعبوا دور الرعايا المخلصين الذين لا يهتمون إلا بمصلحة القيصر . إنه دور قاس بالنسبة إليهم ، ولكنه سهل لهم الوصول إلى هدفهم . فصاحوا :

« إن أخليت سبيله ، فلست صديقاً لقيصر . فمن يدّعي الملك يكون خارجاً على ملكنا » .

حينئذٍ باشر بيلاطس المحاكمة رسمياً ، فأدنى يسوع وقال :

« هوذا ملككم ! أأصلب ملككم ؟ » .

فقالوا : « اصلبه ، فنحن لا نعرف ملكاً سوى قيصر ! » .

فلما رأى بيلاطس أن الصخب واللغط أخذاً يتزايدان ، خشي حصول متاعب ، وربما ثورة يستطيع اليهود اعطاءها مظهر التحرك للدفاع عن شرف القيصر ، وهو أمر خطير جداً بالنسبة إلى بيلاطس ، ولما رأى أن عناد اليهود لا يقهر ، أخذ وعاء ماء بارد وغسل يديه أمام الشعب ، وقال :

« إنني بريء من دم هذا البار ، وأنتم تتحملون مسؤوليته ! » .

فصرخ اليهود : « أجل ، فنحن وأولادنا نكفر عن موته ! » .

وهكذا انتصر اليهود : فأطلق سراح باراباس وحكم على يسوع بالصلب (طريقة الرومانيين في الموت ، ولكنه مشين كالشنق في أيامنا) .

وبقي يسوع عرضةً لسخرية الجنود وفضاظتهم حتى اللحظة التي اقتادوه فيها إلى مكان التعذيب . وكانت العادة أن يحمل المحكوم خشبته . ولكن يسوع أعفى من ذلك . وأعطيت الخشبة لرجل يدعى سمعان كان موجوداً هناك ، فحملها .

وكان حشد الجماهير كبيراً . فلم يجرؤ أصدقاء يسوع على الاقتراب منه ، بل تبعوه وحضروا التنفيذ من بعيد وهم متفرقون . وكان بالقرب منه نسوة عرفنه فأخذن يبكين منتحبات على مصيره . وفيما يسوع سائر التفت إليهن وخاطبهن هكذا :

« يا بنات اورشليم لا تبكين عليّ ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . فستأتي أيام يُقال فيها طوبى للنساء العواقر ، وللائي لم تُرضع ، وللنساء اللواتي لم يلدن ! أترين ما حصل لي ! احكمن إذاً إلى أي مدى يمكن أن يصل شعب تحبيه مثل هذه الروح ! » .

وصلب يسوع مع جانين اثنتين .

ووضع صليبه في الوسط . وفيما هم يعلّقونه عليه (باثبات يديه بالمسامير ورجليه بالحبال وحدها على الأرجح)^(١٢٢) صرخ : « يا أبت ، اغفر لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ! » .

واقسم الجنود ملابسه فيما بينهم كما جرت العادة . ووضع بيلاطس لوحة على صليبه كتب عليها بالعبرية واليونانية واللاتينية : « هذا هو ملك اليهود » . فأغاد ذلك الأخبار ، وقالوا إن بيلاطس يجب أن يكتب أن يسوع

^(١٢٢) انظر (Paulus, Memorabilien, 1793, p. 36 - 64) مسألة تسمير أقدام المصلوبين (ملاحظة لهيجل) .

ولكن نص روك نقل ما بين القوسين بطريقة مختلفة : (باثبات يديه بالمسامير وقدميه بالحبال) . وملاحظة هيجل تختلف في هذا النص أيضاً : (ليس هذا سوى احتمال ؛ انظر 2 Paulus, Memorabilien) .

قد ادعى ذلك . ولكن بيلاطس الناقم عليهم بسبب هذه المسألة كلها ، فرح لما لاحظ أنهم يشعرون أن لوحته قد أهانتهم ؛ فلما طلبوا منه تغييرها أجابهم : « ما كتبته سيبقى » .

وفي ذلك الوقت كان يسوع معرضاً ، بالاضافة إلى الآلام الجسدية ، إلى السخرية الشامتة من الرعاع اليهود ، وهم من أفراد الطبقة العليا ومن عامة الشعب ، وكذلك إلى دعايات الجنود الرومانيين الفظة . ولم يمنع المصير المشترك أحد الشقيين المصلوبين مع يسوع من مزج سخرياته بالشتم الساخرة للجماهير .

ولكن اللص الآخر ، ورغم جرائمه ، لم يفقد نهائياً شعوره الانساني وضميره ، فعنف الأول على كونه قاسياً وفضاً ، حتى في هذه الظروف ، نحو انسان يعاني مثله حالة تعذيب واحدة .

وأضاف : « إن مصيرنا عادل . لأننا نلنا ما تستحقه أعمالنا . أما هذا فيتحمل المصير نفسه وهو بريء ! » . ثم قال ليسوع : « اذكرني متى أتيت في ملكوتك » .

فأجاب يسوع : « سنكون معاً في القريب ، ونسكن في مقام المغبوطين » .

وعلى قدم الصليب وقفت أم يسوع مع بعض صديقاتها بحزن عميق . ولم يكن هناك من أصدقاء يسوع الحميمين سوى يوحنا الذي وقف مع النسوة ليشاركهن ألهن . وشاهداهم يسوع معاً ، فقال لأمه : « هذا ابنك بدلاً مني » . وقال ليوحنا : « اعتبرها أمك » . وهكذا استقبلها يوحنا في منزله واعتنى بها ، حسب رغبة صديقه المقبل على الموت .

وبعد بضع ساعات عاشها يسوع متألماً على الصليب ، صرخ : « إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ؟ » ثم صرخ أيضاً أنه عطشان ، وبعد أن

أعطى قليلاً من الخنث الذي مُدَّ إليه بواسطة اسفنجة مبللة^(١٢٣) ، قال أيضاً : « لقد تمَّ » . وأخيراً صرخ بصوت مرتفع : « أبت ، في يديك استودع روحي » . ثم حنى رأسه وأسلم الروح .

واعجب القائد الروماني المشرف على التنفيذ بالهدوء والجلال اللذين مات بهما يسوع . أما اصدقائه فشاهدوا نهاية صديقهم الحميم عن بعد .

ولما كان المصلوبون لا يموتون في العادة إلا شيئاً فشيئاً ، ويبقون في بعض الأحيان عدة أيام أحياء معلقين على الخشبة ، وكان الغد يوم العيد الكبير عند اليهود ، طلب هؤلاء من بيلاطس أن تُكسر سوق المصلوبين وأن ينزلهم من هناك حتى لا تبقى الأجساد على الخشبة إلى الغد . ففعلوا ذلك بالمجرمين ، لأنها كانا لا يزالان حيين ، ووجدوا أن ذلك غير ضروري ليسوع ، فطعنوه بحربة في جنبه حيث خرج ماء (دم أبيض) ممزوجاً بالدم .

وكان يوسف الرامي ، أحد اعضاء مجمع أورشليم ، ولا يعرف عنه سوى أنه صديق ليسوع ، قد طلب إلى بيلاطس أن يعهد إليه بجثمان يسوع . فأجابه بيلاطس إلى طلبه . فذهب يوسف مع نيقوديموس ، وهو صديق آخر ليسوع ، فأخذَ الميت وحنطه بالمرّ والعود ، ولفّه بالكفن (نسيج كتان) ووضعهُ في ضريح عائِلته المنحوت في الصخر ، والكائن في بستانه القريب من مكان الصلب . وهكذا استطاع بسهولة انجاز كل هذه التجهيزات قبل ابتداء العيد : أي اليوم الذي لا يُسمَح فيه بدفن الموق .

(١٢٣) في الهامش : « λεγόντι τῷ ἑρπῆτι » - دعوهُ ولا تعذبوه حتى لا يموت للحال ، فنحرم من متعة رؤية ايليا وهويأتي لمساعدته . مرقس ١٥ : ٣٦ (ملاحظة لهيكل) .

المحتويات

مدخل بقلم د. د. روسكا	
١ - « دفاتر الشباب » لهيكل	٧
٢ - تأثيرات ونزعات	١٥
٣ - « حياة يسوع »	٣٤
نص حياة يسوع لهيكل	٤٥

صدر في المكتبة الهيجلية

- ١ - محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الأول) هيجل
(العقل في التاريخ)
- ٢ - المنهج الجدلي عند هيجل د. إمام عبد الفتاح إمام
- ٣ - المنطق وفلسفة الطبيعة ولتر ستينس
- ٤ - فلسفة الروح ولتر ستينس
- ٥ - أصول فلسفة الحق (المجلد الأول) هيجل
- ٦ - موسوعة العلوم الفلسفية (المجلد الأول) هيجل
- ٧ - محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الثاني) هيجل
(العالم الشرقي)
- ٨ - جدل الفكر د. إمام عبد الفتاح إمام
- ٩ - جدل الطبيعة د. إمام عبد الفتاح إمام
- ١٠ - جدل الإنسان د. إمام عبد الفتاح إمام
- ١١ - حياة يسوع هيجل
- ١٢ - نظرية الوجود عند هيجل هربرت ماركيزوز